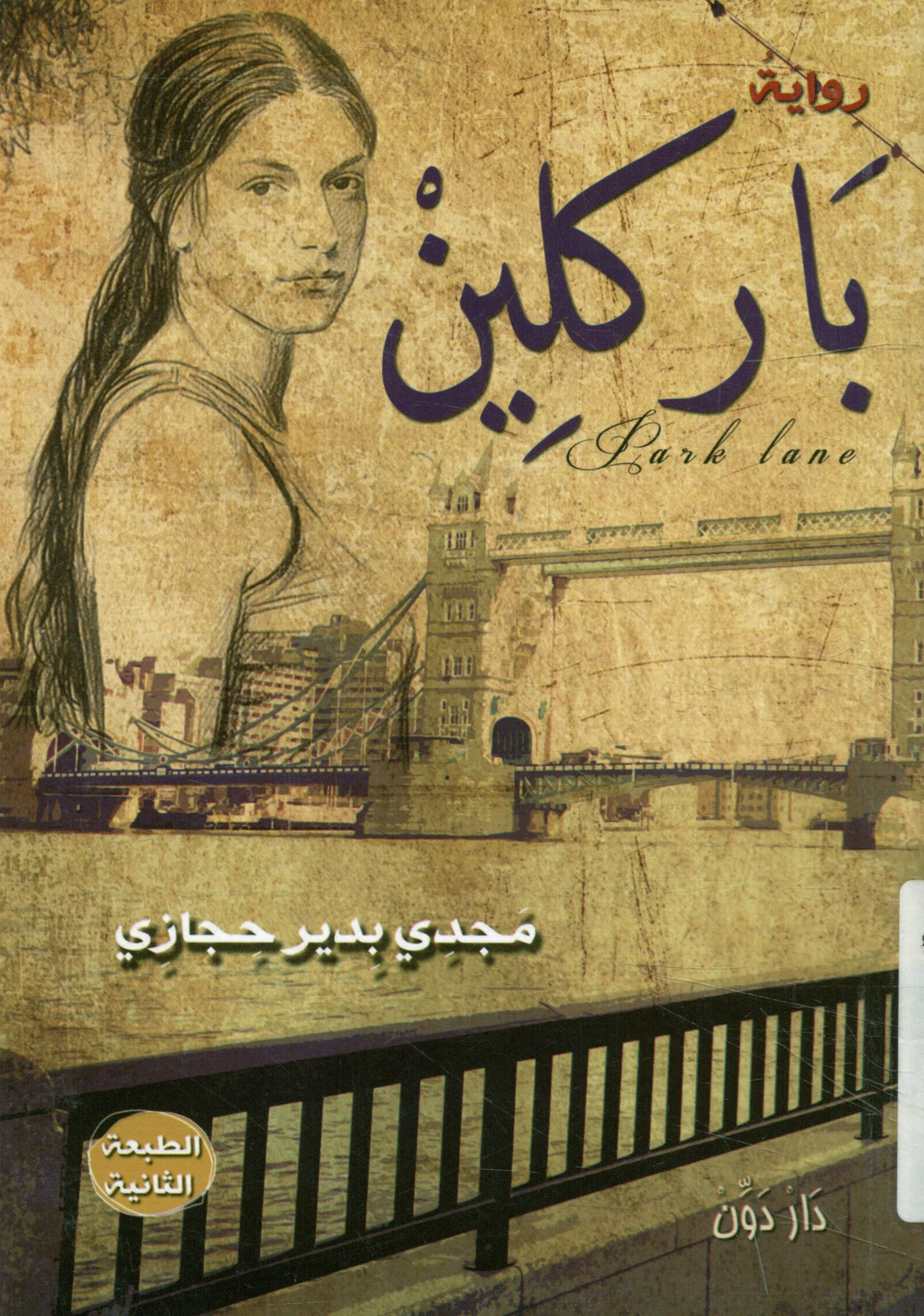

رواية
بَاركلِين
Park lane
مَجدِي بِدير حِجازِي
الطبعة الثانية
دَارْ دَوِّنْ

بارگــلین

الطبعة الأولى فبراير 2013

الطبعة الثانية نوفمبر ٢٠١٣

رقم الإيداع : 2012/22142

الترقيم الدولي : 8-07-6426-977-978

تصحيح لغوي : محمود الغنام

تصميم الغلاف : إيمان صلاح

١٨ شارع محيي الدين أبو العز - الدقي

تليفون: 01020220053

E-mail: info@dardawen.com

www.dardawen.com

باركـــلين

مجدي بدير حجازي

روايـــة

الطبعة الثانية



دار دَوّن للنشر

إهـــداء

أهدي كتابي هذا إلى صديقي د. أشرف عيسى أستاذ الأدب المقارن بجامعات إنجلترا. الذي شجّعني على استكمال هذه القصة.

فلما ألحَّت على خواطري، وحنيني للماضي، لتخرج في دفقات متتابعة على الورق في الصباح الباكر حيث ما زال الناس ثبوتا في أسرّتهم، فعندما بدأت الكتابة انتابني شعور بالانزعاج الشديد، كيف يحدث ذلك وأنا حياتي يملؤها العمل منذ أن تركت رغد العيش في منزل أبي بالمنصورة، واستأنست أميال الصحراء وآفاق السماء في سفر متكرّر؛ من أجل حياة كريمة لي ولأسرتي.

كنت في لندن في مهمة حيث يقيم د. أشرف، وقد كنت كتبت الفصل الأول، فدعوته إلى قراءة ما كتبت ناقلا له وساوسي أن يكون الخرف قد تسرَّب إليَّ مبكِّرا. ولكنه دعاني إلى الاستمرار في الكتابة بعد أن قرأ ما عرضته عليه، واستمر يقرأ ويدفعني إلى مزيد من الكتابة حيث كنت أقرأ لمعان عينيه تارة، وابتساماته تارة أخرى، كما أنه كان يعيد قراءة بعض المقاطع بصوت مرتفع استحسانا.

أهديه إلى السيدة المصرية التي شكّلها طمي النيل، فكانت صلابتها ورباطة جأشها وإصرارها، ولمس ندى الصباح الباكر أحاسيسها فكانت غصنا حنونا

يُظلُّ من حوله من زوج أو أبناء، فكانت خير الروافد لأرض الحضارة في بلاد الغرب.

أهدي كتابي إلى ابنتي الصغرى (فرح) التي قضت أعواما عديدة في زيارات متكرِّرة لمستشفيات لندن، فكانت ملهمة لي في كثير من التفاصيل التي اختلط فيها الواقع والخيال فتلاشت الفواصل بينهما.

إلى صديقي/ محمود الإتربي وزوجته د. هالة المرصفاوي التي كانت تستكمل دراسة الطب بلندن وقت اكتشاف حالة ابنتي الصحية، حيث لم يجد الطب التجاري في مصر حلا لمشكلتها، فاستضافونا في منزلهم بلندن لبداية رحلة العلاج التي استمرت سبعة عشر عاما.

شكرا وعرفانا للدكتور/ مجدي يعقوب وفريق عمله؛ فلولا إرادة الله ودأبهم ما شفي كثير من المرضى من آلامهم.

إلى الذين ألهموا الشعب المصري، فخرج في ثورة يناير محتجّا على ما ألمَّ به من الهوان والتدنِّي، فكانت ثورة أسكنت كل شيء، وأوقفت عقارب الساعة لتبدأ في حركة بطيئة على استحياء أدى بي إلى مزيد من الوقت والتأمُّل والكتابة.

إلى كل من تعرَّضت إليه بالاسم أو الرمز أو الإشارة، أؤكد أن هذه القصة من خيال كاتبها، وإن كانت شخصياتها شخصيات حقيقية، أما الأحداث فجميعها خيالية، وبطلاها تم صناعة شخصيتيهما من خيال الكاتب؛ لخدمة أحداث القصة.

وأشكر قارئي على صبره على تفاصيل أردت أن أنقلها إليه وكأنه عاشها أو شارك في صنعها.

وأخيرا أشكر السيدة/ نجلاء سكرتيرتي؛ فقد كانت قارئتي الأولى وكذلك الناقدة، فقد كلَّفتها بتحويل انسياب قلمي إلى كلمات مطبوعة يسهل تداولها بأدوات العلم الحديث.

عودة إلى القاهرة

قطع أفكاري نداء المضيفة تعلن عن إقلاع الطائرة من لندن إلى القاهرة، فأخذني الفكر إلى حواري البساتين حيث نشأت في حي كان الأموات يسكنونه قبل الأحياء.

إلى القاهرة التي تعجُّ بسكانها من كل الأشكال، وهذه الأزقة والحواري بين أحواش الموتي التي شهدت صباي.

تذكَّرت مسجد الكحلاوي هذا المكان الذي كانت تتجمّع عنده السيارات في الجنازات، كنا نبدأ من هذا المكان وجهتنا إلى الأحواش لحضور الدفن وتسوُّل بعض القروش القليلة، ثم تتلو هذه الغزوة أن نترقَّب يوم الجمعة ونميّز بين هذا الميت الذي يرتاح منه أهله، أو ذلك الذي يلتاعون عليه، ويقومون بزيارات متكرِّرة وكل مرَّة يأتون بما تيسَّر من خيرات الله.

كنت أفكر لماذا كنا هكذا، الجميع يلبسون الملابس الجديدة في العيد والألوان الزاهية، أما أنا فكان عليَّ أن أحوّل العيد إلى موسم للتسوُّل والادِّخار، فأحصل فيه على بعض أوارق المال الجديدة التي بأيدي زوار الأموات لأدَّخرها من أجل أيام لا أعلم إن كنا سنحصل على ما يسدُّ رمقنا أم ننام وقد خوت بطوننا من الطعام.

لقد عشت في هذا المكان سنوات صباي تحت ذُلِّ العوز والحاجة أنا وأمي، التي كانت تبدو على قسمات وجهها قسوة الأيام بوضوح شديد.

وأتذكَّر ذلك اليوم الذي منعتني فيه أمي مشاركة الصبية والفتيات تتبُّع الجنازات بزعم أنني أصبحت فتاة غضَّة، ولا يصحُّ أن أختلط بهولاء الجيران.

كنت أجد في استذكاري لدروسي السلوى والمهرب من واقعي الأليم، الذي أحاول أن أتعايش معه حتى أستطيع أن أغيّره في يوم من الأيام. فقد كنت أبدأ استمتاعي بالمذاكرة وقد أخليت ذهني تماما لما أقرأ، فأنسى خلالها كل ما حولي من فقر وحاجة، وأتوحَّد مع ما أستمع إليه بالمدرسة، وما أقرأه بعد عودتي فأنتقل إلى عوالم أخرى، هي أفضل كثيرا من الواقع الذي أكابد وطأته. فكانت دراستي تفصلني عن عالمي، وهكذا قضيت سنوات الدراسة في تفوُّق واضح، وإذا بي أعود من مدرستي لأزفَّ إلى أمي أنني قد حصلت على مجموع في الثانوية العامة يؤهلني لدخول كلية الطب.

لم نكن أنا وأمي السعيدتين الوحيدتين بهذا الإنجاز، ولكن أهل المنطقة شاركونا فرحتنا، وكأنهم في شوق إلى أي خبر يتسرَّب إليهم يُشعرهم أنهم لا يزالون أحياء.

وأبتعد عن الحي الفقير في رحلة يومية إلى الكلية، لم تكن قبل ذلك رحلاتي إلا مع أمي لكسب لقمة عيش نقتاتها من الخدمة في المنازل لدى الأسر الغنية غالبا في حي المعادي القريب منا.

كان عليَّ أن أشارك أمي عملها في أيام إجازاتي؛ فقد أجد بعض الجنيهات لتعينني على مواصلة رحلاتي إلى الجامعة، أو أحصل على بعض الملابس التي ضاق بها أصحابها ذرعا بعد أن تكرَّر ارتداؤهم لها لمرات قليلة. كنت أتأمَّل زميلاتي من ذوي الآباء الذين تباروا في تحويل بناتهنَّ إلى موديلات متحرِّكة، ترتدي كل منهن ما يجعل البوصة تبقى عروسة.

كانت التساؤلات تقتحم مخيلتي لماذا أنا هكذا؟ بلا مال ولا أب وأمّ أهلكها الزمن في خدمة البيوت، فكانت صحّتها تكفي بالكاد لأن تحصل على ما يسدُّ رمقنا أنا وهي.

وفي منزل عائشة هانم ذات السبعين خريفا كانت أمي تجد ساعة من الراحة ظهرا قبل أن تُعِدَّ لها ولابنها د. نافع طعام الغداء، وتبقى حتى تحصل لي على نصيبي منه بعد أن تأكل غداءها. كانت الأرملة العجوز طيبة وكريمة، وكان العمل لديها قليلا؛ حيث الشقة ذات الغرفتين لم يكن أحد غيرنا يدخل إليها لسنوات، كانت تأتمن أمي على ما بقي لها من متاع الدنيا من مصاغ قليل، وكذلك ما كان يأتيها من مال كانت تتركه أمامها دون إخفاء، لم تمتدَّ عيني أنا وأمي إلى ما نراه عندها، أو لدى أي من الشقق التي كنا نتردَّد عليها. لا أعرف أهذا خوف من الله أم خوف من الناس والعواقب.

كانت أمي تزور السيدة مرّتين كل أسبوع، أصحبها إليها في إحداها حيث أحصل على أجري وكأنني عملت طوال النهار، وأتمتَّع بالحصول على حمام ساخن لم يكن من السهل الحصول عليه في منزل أمي، لم تكن عائشة هانم في حاجة إلى زيارتي الأسبوعية هذه، ولكنها كانت تجامل أمي في هذه الاستضافة مدفوعة الأجر، وقد كان هذا المنزل منذ أن بدأنا التردُّد عليه بمثابة نافذة على الدنيا بالنسبة لي، فقد كانت السيدة مثقَّفة جدا، واسعة الاطلاع في مجالات شتى، وكان زوجها الراحل يعمل بالسلك الدبلوماسي، وقد صحبته في السفر والإقامة في بلاد كثيرة، مما أثرى حديثها وجعلها شخصية مميَّزة، وكانت لا تُشعرنا بفارق الطبقة، الذي تتفنَّن الأخريات من هوانم المعادي بتذكيرنا به منذ بداية دخولنا منازلهم حتى خروجنا منها، بل كانت تناديني بالدكتورة وفاء منذ قبولي بكلية الطب.

عرض عليَّ د. نافع نجل عائشة هانم الطبيب ذو الخمسين عاما أن يساعدني في استذكار دروس الطب بعد أن يعود من النادي يوم إجازته، وأكون أنا وأمي قد فرغنا من تنظيف الشقة وتجهيز الطعام للأيام القادمة. لم يمضِ كثير على بداية انتظامي في حصص الدكتور نافع حتى وقعت كفريسة سهلة في يده، كان نافع يتحرَّش بي أحيانا على استحياء، ولم أكن في وضع يسمح لي بالرفض. وإذا به في إحدى الليالي يطلب مني أن أجلس بجانبه على السرير حيث إنه متعب ولا يقوى على الجلوس على المكتب.

وترنُّ كلمات أمي لي وهي تقرصني في لباليبي (بين فخذي) قائلة لي: دول مايتفتحوش إلا عند الجوازيا بت.. فاهمة؟؟

وأومئ لها بأني فاهمة، برغم أنها كانت تردِّد هذه المقولة منذ أن كنت أقف أمامها عارية للاستحمام، وكلما زادت استدارة ثدييَّ وبروزهما كانت هذه النصيحة تزداد تكرارا، حتى أصبحت تردِّدها دون حمَّام ودون مناسبة وكأنها كانت تعلم أنني لن أستمع ولن أطيع.

فقدت في هذه الليلة عذريَّتي، أعزَّ ما تمتلك الفتاة، عندما غفلت عنا أمي وانصرفت مبكرا لقضاء شأن لها، عدت كسيرة إلى منزل أمي، حيث كان عليَّ أن أركب مواصلتين إلى المنزل، الميكروباص إلى قسم البساتين، ثم نتراصُّ في صندوق سيارة نقل بها دكَّتان إلى حيث نسكن بجوار مدفن عائلة عائشة هانم. كانت الأفكار تفترس رأسي؛ فقد كانت حياتي بين زملائي بالكلية شيء آخر، كنت هادئة منكسرة، أبتعد عن زملائي وأخجل عندما تدور بينهم المناقشات حول الأجزاء الجنسية من الرجل.

ماتت عائشة هانم، واعتذرت أمي للدكتور نافع عن العمل لديه حيث إن العمل لدى رجال عزاب لم يكن واردا في قاموس أمي بأي حال من الأحوال،

لم يكن هناك أي استثناءات لهذه القاعدة الثابتة على الإطلاق، وعبثا حاول نافع إقناع أمي أو إغراءها بالمال الذي كانت دائما تفتقر إليه بأن تستمرَّ في تنظيف الشقَّة كما كانت تفعل في حياة والدته حتى في مواعيد عمله وأوقات عدم وجوده.

انقطعت علاقتي وصِلتي بنافع طبقا لظروف وسائل الاتصالات وقتئذٍ. لكن عند عودتي من الكلية في أحد أيام شهر يناير أبلغتني أمي بأن نافع زارها قبل عودتي طالبا خطبتي لنفسه، لم تكن أمي سعيدة بذلك ولكنها أبلغتني بذلك وتركت لي بحث الأمر، حيث إن الموضوع كان محيِّرا بالنسبة لها.

استمهلت أمي أسبوعا للرد حيث إنني أحتاج وقتا للتفكير، فقالت لي أمي:
- هتردِّي على إيه؟ ده راجل قدّ أبوكي.
- خليني أفكر يا ماما.

اتصلت بنافع تليفونيا بالمنزل وسألته عن زيارته لأمي، كان تليفوني مفاجأة له وطلب مني أن نتقابل للتفاوض، كان لقاؤنا بالكلية، كنت قد أخذت قرارا بأن موافقتي مرهونة بعدم حديثه عما كان بيننا، تقابلنا عند كافتيريا عم شوقي عند قسم الفارماكولوجي، لم يكن المكان مناسبا لبحث ما أردت أن أبحثه، ولكن اختياري لهذا المكان للقاء كان يحوي إيحاءً لنافع بنسيان ما كان بيننا، وأنني أقدِّم نفسي له بشكل جديد، تناولنا الساندوتشات وزجاجتين من المياه الغازية قدَّمتهم لنا مطيعة ابنة عم شوقي ذات الوجه الأسمر المبتسم الطيب، التي كانت علاقتي بها جيدة، فقد كنا من طبقة واحدة على عكس الكثير من الزملاء.

بدأ حديثه معي بفارق السن بيننا وبتعهُّده بأن يسعدني على قدر استطاعته، وأنه من عائلة تحترم السيدات، وأن ذلك كان سلوكه مع والدته

التي كان يعاملها معاملة الملكة غير المتوَّجة حتى وفاتها، كذلك كان يفعل المرحوم والده معها، لم يطل لقاؤنا حيث كنا وقوفا، فلم يكن بالمكان موضع للجلوس، ولكن نافع فهم رسالتي ولم يلمح بما كان بيننا هذا اللقاء أو أي وقت آخر بعد ذلك. اتخذت قرار الموافقة وأبلغته لنافع ولأمي، كنت في العام الخامس من الدراسة ولم يبقَ على تخرُّجي سوى عام ونصف العام.

اتفقت أمي ونافع في وجودي على أن يكون زفافي إليه بعد حوالي شهر في أول أيام إجازة نصف العام. عندما سأل نافع أمي عن طلباتها المادية، كان ردُّها حكيما أذهلني وزاد تقديرها عند نافع وعندي.

فقد أخبرته بأنها لا تبيع ابنتها، ولكن تزوِّجها بمن وافقت عليه، فإن الشبكة هي هدية من العريس لعروسه لا يجب الحديث عن قيمتها أو شكلها، أما المهر فلا حاجة لي به؛ حيث إنني لن أحضر جهازا، ولكنها مجرد أشياء شخصية فحسب. لكنها طلبت أن يكون لي صداق مؤخَّر قدره خمسة آلاف جنيه، واشترطت أن يتم كتب الكتاب بمسجد الكحلاوي على يد مأذون البساتين.

توالت لقاءاتنا أنا ونافع عند عم شوقي، وبدأنا في التعوُّد على بعض، حتى إن مطيعة كانت تسأل عنه عندما تراني وحدي، الذي كان كثيرا ما يمزح معها قائلا لها:

- ربنا يتوب علينا من ساندوتشاتك يا مطيعة!

مشيرا لرغبته السريعة في أن يضمَّني منزله.

أعطاني نافع مظروفا في إحدى مقابلاتنا معللا بأنه من أجل أن أشتري حاجياتي الخاصة، كما أحضر لي دبلة ذهبية بعد أن طلب مقاس إصبعي في مقابلة سابقة، وجدت ألفي جنيه بالظرف مكَّنتني من الحصول على ملابس

جديدة، وكذلك لوازم العروس الخاصة. حضر عمي من الصعيد الذي لم أكن رأيته إلا مرات قليلة زارنا فيها صلة للرحم -على حد قوله- وكان وكيلي في العقد.

أهداني نافع سوارا ذهبيا كان لوالدته، وخرجنا إلى عشاء في مطعم على نيل المعادي وهكذا صرنا زوجين. وكأن القدر كان يرتّب لي أن أصبح مكان هذه العجوز الطيبة في حياه نافع أمّا وزوجة.

تركت منزل والدتي بين الأموات لسكن نافع بالمعادي، كانت نقلة كبيرة في حياتي، أصبحت بين لحظة وأخرى سيدة المنزل الذي كنت أتناول فيه طعامي بجوار أنبوبة البوتاجاز بالمطبخ، وكان عليَّ أن أرتقي بنفسي كي أكون زوجة لنافع بالاندماج في مجتمعه، والتعامل مع المستجدات التي طرأت على حياتي.

فمثلا تعلَّمت قيادة السيارات وأقمت علاقات اجتماعية مع جيراني، الذين لم يربطوا بيني وبين السيدة التي كانت تأتي لأمه لتنظيف الشقة، وقد سهَّل شكلي الجميل وقوامي الفارع اقتحامي لهذا المجتمع الجديد الذي كنت أتعامل مع مجتمع قريب منه في الجامعة. كنت سعيدة بهذه الحياة مع زوجي الذي كان يعاملني بكل حب واحترام، فكنت خادمة له في المنزل، وصديقة له في الشارع، وعاهرة في فراشه، حتى صرنا نتحرَّك أنا وهو ككتلة واحدة في أي مكان.

كان نافع سعيدا معي بقدر كبير، وكذلك أنا، فقد كان يرجع إلى المنزل في الثانية أو الثالثة على الأكثر، كان يمرُّ عليَّ بالكلية لاصطحابي إلى المنزل في أغلب الأحيان، لم يكن له أصدقاء كثيرون، وقد كان منطويا خجولا شديد الارتباط بوالدته مما أخَّر زواجه، وقد حوَّلت المنزل إلى واحة من الراحة

والسعادة. كان قرار زوجي أن أتوقَّف عن استعمال موانع الحمل، فسرعان ما زادت ساعات نومي وغممان نفسي، فزففت إليه خبر حملي، فكان سعيدا سعادة الأطفال متشوِّقا لرؤيه ابنه عند خروجه للحياة بعد أشهر.

رحل عني زوجي نافع بعد عامين من الزواج، وقد ترك لي نجلي عمر جنينا بين أحشائي، وكأنَّ القدر قد حرم كلا منهما أن يرى الآخر. اختطفه الموت إثر أزمة قلبية حادَّة تعرض لها بعد أن أنهى تدخين السيجارة الأخيرة من العلبة الثالثة. وكأنَّ الموت أبى أن يفارقني بعد ترك سكن المقابر بالبساتين، فقد رحلت والدتي هي الأخرى التي تكالبت عليها العلل والأمراض، في ثلاثة أشهر قضتها بين أروقة قصر العيني بعد وفاة نافع.

لم تكن الجنيهات القليلة التي أحصل عليها وأنا طبيبة امتياز، بالإضافة لمعاش زوجي كافية لأي شيء؛ فلم يترك لي زوجي إلا الشقة وبعض قطع من الموبيليا القديمة التي بدأت في بيعها قطعة قطعة لاستكمال مصروف البيت وبنزين السيارة الفولكس واجن التي تركها لي زوجي.

مرَّت الأيام وأنجبت نجلي عمر، كانت حياتي الجديدة بعد وفاة نافع ووالدتي قاسية، وخالية من أي لمسة عطف أو حنان، ولم يكن في حياتي أي علاقة إنسانية تعوِّض فقدي لزوجي وأمي، طالما احتجت إليها خصوصا في الشهور الأولى لميلاد نجلي، الذي أصبح هو كل أهلي، وكذلك كل أملي في أن يعوِّضني عمَّن خطفهم الموت من حولي، كما كانت مواردي المالية ضعيفة جدا، كنت أذهب للعناية ببعض المرضى والمسنِّين لبعض الساعات بعد مواعيد عملي لزيادة دخلي، ظللت أعاني هذه الوحدة والفراغ العاطفي حتى قابلته.

رجلٌ في حياتي

كنت أتردَّد على مكتب بالعمارة التي كنت أقطنها كي أستعمل التليفون بعد أن عجزت عن سداد فاتورة تليفون منزلي، وفي أحد الأيام رأيت صاحب المكتب يخرج مع سكرتيرته، فقد كنت أراه دائما من بعيد، وبادرتني السكرتيرة بالتحية، وأخبرته أنني دائمة استعمال تليفون المكتب مثل بعض الجيران، الذين كان يلقاهم بكل ترحيب لإجراء مكالمة لم تكن سهلة في هذه الأيام.

قالت له منى (السكرتيرة) إنني "الدكتورة اللي في الدور الثاني".

بادرني بالسؤال:

- إنتي جاية تسلِّمي على منى ولا عايزة التليفون؟

وأجبته بالبساطة نفسها:

- والله أنا كنت عايزة التليفون.

فقال لي:

- خلي منى تروَّح، وتعالي اتكلمي من تليفون العربية.

كان مظهره الأنيق ودماثة خلقه التي سمعت عنها من سكرتيرته وموظَّفيه في أكثر من موضع عندما كنت أذهب إلى المكتب، ورغبتي السابقة في التعرُّف

عليه عن قرب، كانوا وراء موافقتي الفورية للركوب معه في سيارته، بل في محاولة الإطناب في الحديث معه بل وإطالة هذه المقابلة قدر الإمكان.

أجلسني جواره في سيارته الفاخرة، أحسست أنني انتقلت إلى عالم آخر لم أكن أعلم عنه شيئا، وعندما حاولت فتح الزجاج الذي بجانبي حارت يدي وأنا أبحث عن هذا المقبض التقليدي، فإذا به يفتح الشباك بزرٍ إلى جواره، وسألني عن الرقم ولكني كنت مرتبكة جدا، وأخذت نسمات الهواء البارد تنساب من بين أجزاء السيارة، ونظرت إلى التليفون المثبَّت بها، إنه ليس كالذي عندي في البيت، وإذا به يعيد قفل الشباك الذي بجواري فأكَّد ذلك إحساسي بأنني في عالم آخر.

نعم إن السيارة بالداخل باردة والحرارة خارجها تكاد تصل إلى الأربعين، والموسيقى تنبعث من حولي هادئة ناعمة، وكأنها تُعزف خصيصاً من أجل ذلك الرجل القابع خلف عجلة القيادة إلى جواري، وداعبت أنفي رائحة جميلة لم أدرِ إن كانت رائحة السيارة أم رائحة عطر صاحبها. وفي خجل شديد أعطيته رقم التليفون وإذا به يضغط أزرار التليفون دون أن يرفع السماعة كما اعتدنا في المنزل، وبادرني:

- تحبّي أنزل هتقولي كلام سر؟

- لا أبدا، لا سر ولا حاجة.

وندمت، كيف أتحدَّث أمام هذا الرجل الغريب في بضع جنيهات وأنا لا أعرفه، وثراؤه يبدو في كل شيء، سيارته، نظارته، السلسلة الذهبية والقلم الفاخر في جيبه، وكذلك ساعته وملابسه. تمنَّيت أن لا يردَّ التليفون وينتهي هذا الموقف المربك، ولكن صوت عم محمود خرج من التليفون، الذي لا يزال مكانه، وإذا بفريد يحرِّر سماعة التليفون ويعطيني إياها.

- عملت إيه يا عم محمود؟

- يا ريت ما تتأخرش عليَّ.

- يا ريت لو يكون في المعادي علشان ما أتأخرش على عمر.

- طيب هاكلمك بكرة زي دلوقتي.

- مع السلامة.

كنت أعتقد أنني قد أخفيت عن فريد المكالمة وسببها، ولكن ذكاءه الحادَّ باغتني بسؤال:

- انتي بتدوري على شغل؟

- آه

- عندك مانع نتمشَّى شوية بالعربية.

- لأ.

وما أن تحرّكت السيارة حتى أحسست أنني مستلقية أمام أحد الأطباء النفسيين على الشيزلونج الشهير.

لم أجد أي حرج في سرد قصة حياتي بكل تفاصيلها المخجلة والمهينة أحيانا، كان خوفي وقلقي على مستقبل نجلي قد سيطرا على حديثي معه، وقد سقت له قصتي وكأنني أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي تجاه مستقبل ولدي إليه، كانت كلماته القليلة المعبِّرة بين أجزاء حكاياتي وكأنها دواء أو بلسم يشجِّعني على مزيد من الحكي وكثير من التفاصيل، أحسست يومها وكأني أقف أمامه عارية تماما، ولكنه في النهاية طيَّب خاطري، وقال لي إن الإنسان يأتي إلى الحياة كما هي، وليس له من أمر نفسه شيء حتى يقوى ويستطيع أن يكون لاعبا فيها، وهنا تبدأ المسئولية، كما أخذ يطمئنني على ولدي قائلا بأن من له أمّاً مثلي كرَّست حياتها لأجله لا يُخشى عليه. بهذه الكلمات المهدِّئة ودَّعني، فتح لي باب السيارة حيث ضلَّت يدي الطريق إلى مقبض الباب، وانصرف.

عُدت إلى المنزل وقد أبى النوم أن يتفضّل عليَّ بزيارته هذه الليلة. فلم أكن اقتربت هكذا مع من على شاكلة فريد، وعالمه الذي يختلف تماما عن عالمي الأول، وكذلك عن العالم الآخر الذي عشته مع المرحوم زوجي، تكوَّن عندي إحساس أن هذا الرجل سوف يكون له شأن مهم أو دور ما في حياتي أنا ونجلي.

رُحت أفكِّر فيما قلته لهذا الرجل الغريب، لماذا قلت له كل ذلك، هو لم يسألني، ما الذي جعلني أحكي له ما أخجل من أن يعرفه عني الكثيرون، ماذا يقول عني أو يعتقد فيَّ، وأخذت أردُّ على نفسي بأنني قلت له ذلك؛ لأنه بعيد عني، ليس من أقاربي ولا بيئتي، ولا يمكن أن يحكي أي شيء عني لأي أحد أعرفه، بالتأكيد لا يمكن أن تكون هذه الثرثرة لها أي أثر أو معنى عنده، وغالبا ما نسي كل شيء قبل أن يعود إلى منزله، وأيقنت أنني لم أروِ له ذلك، ولكني كنت أروي روايتي لنفسي.

مرَّت خمسة أيام دون أن أرى سيارته في مكانها، وكنت أنظر من شباكي ولا أعلم ماذا أنتظر، ووجدتني ذاهبة إلى مكتبه لأسأل عنه.

أخبرتني منى بأنه سافر إلى الخارج.

وجدتني أسألها:

- متى سوف يعود؟

فنظرت لي نظرة ماكرة، وقالت:

- أنتي هترسمي عليه ولا إيه؟

وإذ بي أتراجع عن اهتمامي به، وسؤالي عن تفاصيل حياته، إلا أنها بادرتني:

- عموما الراجل بتاعنا راجل محترم ويعاملنا معاملة الأب.

وراحت هي الأخرى تحكي لي حكايتها، وأنها أمامها شهر وتتزوَّج وتهاجر مع زوجها إلى إيطاليا، حيث إنها ابنة أحد موظفي السكة الحديد، تقيم مع أسرتها الأب والأم وشقيقة معاقة تقوم بخدمتها عند عودتها من العمل، وهم من سكان حي دار السلام المجاور للمعادي، وكان أبوها يرفض تزويجها حتى تقوم برعاية أختها، وأن فريد حاول إقناع والدها بقبول عريسها ولكن فشل في مهمته. فاستعانت بخالها لكتابة كتابها وفرض الأمر الواقع على أبيها، وعندما علم فريد بذلك زار والدها وأقنعه بأنه لا بد من قبول الأمر، واتفقا على إقامة حفل بالمنزل لكتابة الكتاب المكتوب فعلا؛ حفظا لماء وجه أبيها أمام الجيران، وأخبرتني أنه ساعدها وأسرتها على الخروج من هذه الأزمة، وأنه يساهم في تأهيلها من أجل الحياة الجديدة في مدينة ميلانو الإيطالية.

مرَّت الليالي بطيئة ومملَّة وكأني أنتظر عودة فريد إلى القاهرة، كانت تساورني الأفكار، مرة أخاطب نجوم الليل خطاب امرئ القيس لها "فيا لكَ من ليلٍ كأنَّ نُجومَهُ... بكلِّ مُغَار الفتلِ شُدَّتْ بيَذبُلِ" وتارة أقول لنفسي لماذا هذا الانتظار؟ وكيف سيقابلني؟ وهل سيتذكرني؟ وكم جملة من حكايتي علقت في ذهنه؟ لقد كان تليفون السيارة كثيرا ما يقطع حكاياتي، كان يردُّ ردودا سريعة وحاسمة، ويعود إليَّ كي أكمل ما بدأت جبرا لخاطري.

قرَّرت أن أقتحم عليه مكتبه حتى لو قابلني دون اهتمام، أكون أنا قد رأيته وأدَّيت ما يمكن أن أفعل.

ووجدتني أطيل وقفتي أمام المرآة لأسرِّح شعري وأضع الكحل حول عيني، وأتامل جسدي الممشوق وبشرتي السمراء الناعمة، ماذا ألبس من أجله؟ وفتحت خزانة ملابسي، لم أحتَرْ كثيرا، فلم يكن بها ما يجعل المرء يحتار، لبست فستانا من القطن الناعم ورديَّ اللون، مددت يدي كي أعيد بريق

حذائي الوحيد ذي الكعب العالي، لم يكن لديَّ إلا بقايا من زجاجة عطر من النوع المحلي، كنت اشتريتها من بائع العطور عم علي بحي دار السلام.

ما أن سمحت لي منى أن أدخل إليه حتى قابلتني رائحة عطره عند باب الغرفة. كنت خائفة متوجِّسة من هذا اللقاء، وإذ بنظرته الودودة تذيب كل التوتر.

- حمد الله بالسلامة.

وأنا أسلِّم عليه بكلتا يدي، وهذا لم أفعله مع أحد من قبل.

- الله يسلمك.

- أنا قلت إنت مش هتعرفني وسط شغلك ده.

- أبدا النبي وصَّى على سابع جار.

- كيف كانت سفريتك.

- شمة هوا لاستكمال الحياة.

وهكذا ظلَّت يداي ممسكتين بيده حتى أحسست بالحرج، فتركته يسحب يده ليجلس على المكتب، وأجلس على مقعد أمامه.

لم أرَ في هذه الزيارة أي شيء يدلُّ على فارق طبقي بيني وبينه، إلا عندما كان يرد على تليفوناته، أما حديثه معي فكأنني أخاطب أحد جيراني في حي البساتين.

تكرَّرت زياراتي غير المبرَّرة له، ولما رحلت منى، وحلَّت حنان مكانها كانت من النوع المملِّ فقد كانت مطلَّقة، كنت أرى في عينها غيرة شديدة على فريد.

فقد كانت تكرهني، وتتعمد أن ترمقني بنظراتها الخبيثة، وأحيانا مصمصة شفايفها. اقتربت من فريد أكثر، كان يساعدني بالفكر والمشورة في جميع تفاصيل حياتي أنا ونجلي، وبمبالغ مالية صغيرة تعينني على مصروف البيت.

في إحدى زياراتي له بالمكتب علمت من حديث تليفوني أنه ذاهب إلى العجمي؛ للإشراف على شاليه يشيّده هناك، وجدتني ألحُّ عليه أن أذهب معه، وأنني سوف أترك عمر عند خالتي مع أولادها. ما أن وافق حتى علمت أنني سوف أرى عالما آخر لم أكن رأيته من قبل.

بدأت في إعداد الحقيبة لقضاء يومين في الجنة، مع رجل بهرني بكل شيء، ورحت أتزين وأعددت نفسي كعروس تتجهّز لزفافها من أمّ رأسي إلى أخمص قدميَّ، لماذا لا؟ وما هو الزواج؟ أليس هو التراحم والمودة؟ لم أستطِع أن أردَّ أي شيء إلى فريد إلا أن أمنحه جسدي، مؤمنة بيني وبين نفسي أنني أؤدي واجبا قد تأخّر أداؤه.

عندما جلست إلى جواره بادرني بسؤال:

- مين حضرتك بقى؟ يعني لما أقابل حد أقول له مين اللي معايا؟

- قول أي حاجة.. سكرتيرتي، قريبة، زي ما أنت عايز.

انطلقت بنا السيارة تخترق شارع الهرم المزدحم حتى وصلنا إلى بداية الطريق، هذا طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي، هكذا أراه أول مرة، السيارات كثيرة وسريعة، ولكني كنت أشرد بين الحين والآخر في ولدي الذي تركته لأول مرة من أجل هذه الرحلة الاستكشافية، وأشرد مرات أخرى انتظارا لما هو قادم.

طاردتني أفكار شتى عن هذا الرجل الغامض الذي لم أعرف عنه أي شيء، فهو لم يتكلم عن نفسه ولو لمرة، ولكن كل ما أعرفه عنه قد التقطته من مكالماته التليفونية خلال زياراتي له، أو جلوسي جواره في سيارته، كذلك في الطريق من القاهرة إلى العجمي، لكن شيئا واحد سيطر على أفكاري؛ ذلك أنني وضعت نفسي في يد أمينة، وأنني أصبحت في أول إجازة أحصل عليها

منذ أن وعيت على هذه الدنيا. ولم أعد أتكلم معه عن أي شيء يخصُّني، ولكني كنت كثيرة الأسئلة عن كل المستجدَّات التي حولي.

كان ذلك في أوائل أكتوبر. كان الجو ما زال حارا كالصيف. توقفنا أمام عمارة ذات أربعة طوابق لا تبتعد كثيرا عن الشارع الرئيسي بالعجمي، ما أن نزلنا حتى همَّ بواب أسمر ذو سحنة مميزة لأبناء النوبة مرحِّبا، وأخذ الحقيبتين من السيارة إلى الطابق الثاني، وفي سرعة غير مبرَّرة تركني فريد بعد أن أخبرني أنه سوف يغيب ساعتين، حيث يقوم بزيارة موقع الشاليه الذي يرغب أن ينتهي من بنائه ليصيِّف فيه هو وأسرته الصيف القادم، انصرف بعد أن دلَّني على غرفته، وغرفة أخرى هي لي.

بدَّلت ملابسي وبدأت في تنظيف غرفة فريد، ثم باقي الشقة. تذكَّرت أنه قال للبواب:

- أي حاجة تطلبها مدام وفاء تجيبها على طول.

ووجدتني أكتب كشفا لبعض البقالة والمياه ولوازم النظافة والحمام، أعطيته للبواب، كان هذا تصرُّفا مني لم يطلبه فريد، عند عودته كان كل شيء على ما يرام إلا أنا، فقد استرجعت أيام العمل لدى هوانم المعادي، أصبح لون الترينتج الذي ألبسه كلون الأرض، وإذ بفريد يفتح الباب ليجدني في هذا المنظر فينفجر ضاحكا:

- إنتي عملتي في نفسك كده ليه، إحنا كنا هنخرج ونسيب الشقة لأحمد ينضَّفها هو ومراته.. عموما بقى أنا محتاج أنام ساعتين عشان أعرف أفسَّحك في اسكندرية.

دخلت الحمام لإصلاح ما أفسده عليَّ تنظيف الشقة، أخذت دشا ساخنا وكتبت لفريد ورقة على باب غرفته أن يوقظني عندما يستيقظ، ورحت في سُبات عميق، لم أنم في حياتي كما حدث يومها.

- يلا يا وفاء قدامك نص ساعة، عشان فيه ناس عازمينا على العشا في إسكندرية.

تحرّكنا إلى الدخيلة والمكس ودخلنا الإسكندرية عبر كوبري التاريخ العتيق.

مررنا بشوارع الاسكندرية القديمة ذات الرصف البازلتي. شعرت وكأنني سائح ثري وقد استأجر مرشدا ماهرا. مررنا بشوارع بحري وبدأنا السير على الشاطئ من قلعة قايتباي مرورا بالمقاهي الشهيرة، ومطعم تكا كان على يسارنا، ثم على اليمين إلى الداخل قليلا مسجد المرسي أبو العباس، ثم فندق وندسور العريق على اليمين، يليه بعد قليل فندق سيسل الذي كان يرتاده عظماء مصر ومفكروها ويقع عند حافة محطة الرمل، وها نحن في شارع صفية زغلول، مررنا بمحل ديليس وتريانون للجاتوه، تناولنا كوبا من الخروب عند آمال (محل عصائر) بجوار مطعم إيليت، على الناصية الأخرى مطعم سنتالوتشيا، ثم كافتيريا إستريا،

عدنا إلى الأزاريطة ومررنا بشارع بورسعيد حتى آخره، عند معسكر مصطفى كامل اتَّجهنا يسارا إلى الكورنيش مرة أخرى، مشينا حتى المنتزه سريعا، في طريق عودتنا أخبرني فريد بأن موعد العشاء قد اقترب، وأن مضيفنا هو أحد أصدقائه المقيمين بالإسكندرية، طلب مني ألا أنزعج ولا أتكلَّف. في إحدى الحارات الضيقة في وسط الإسكندرية ساعدنا منادٍ على ركن السيارة، كنا دائما محلَّ ترحيب حاد من هذه الفئة، حيث سمعت أحدهم يقول لزميله ليحفِّزه على تسهيل الوقوف لنا:

- جايلك عربية بالتليفون يا ابن الكلب.

فلم يكن تليفون السيارة متاحا لأي أحد هذه الأيام، كما علمت، وأن ثمنه تجاوز أحيانا ثمن كثير من السيارات، بالإضافة إلى فاتورة محترمة يجب سدادها كل شهر.

قابلنا صديق فريد، وهو رجل مرحِّب وبشوش، كان في صحبته فتاة في منتصف العشرينات من العمر، دخلنا ذلك المطعم الشهير شيجابي، بعد أن وقفنا حوالي ربع ساعة حتى تسنى لنا أن نجد مكانا مناسباً لتناول العشاء. عندما شرع من في طاولتي في طلب ما يرغبون في تناوله شعرت بأن هذا العالم المعقَّد لا يمكن لي أن أتعامل معه إلا من خلال فريد.

- تاخدي إيه يا دكتورة؟

- أنا هاتعشى على ذوقك يا هندسة.

- طيب تحبي تشربي حاجة معينة، ولا تشاركينا شوية نبيت؟

- أي حاجة هتاكلها أو تشربها أنا هاحبَّها.

وما أن أحضر النادل زجاجة النبيذ الأحمر عمر الخيام، حتى أومأ له فريد بإيماءة له يعلمها جيدا، فإذا به يضع قليلا من النبيذ في كأس فريد، الذي استطعمها وأومأ له بالموافقة، ورحت أسأل نفسي هل إذا لم يعجب النبيذ فريد فعلى الرجل أن يأتي بزجاجة أخرى؟ وما هذا القانون؟ وأين هذا من "البضاعة المباعة لا ترد ولا تستبدل"؟! عجبا عالم الأغنياء، هذا العالم الذي أقف الآن عند عتباته، وأين هذا من عم رشاد عندما كنا نراوده عن زجاجة كوكاكولا لتقديمها إلى أحد الضيوف كان يبيع ويشتري فينا، ولم يكن يسلِّمها لنا إلا بعد قبض الرهن، وحين عودتنا بالزجاجة الفارغة كان يتأمَّلها جيدا خوفا من أن تكون قد خُدِشت، ويضع يده على الفوهة خشية أن يكون قد أصابها مكروه أثناء فتحها.

ومع رشفات النبيذ وطعم البيتزا المميز، أحسست بسعادة لم أكن أعرفها من قبل، فقد كان صديق فريد لطيفا ودودا لا يسأل عن أشياء شخصية، ويبدو أن هؤلاء الناس متماثلون في الطباع، كانت الأحاديث تنساب دون لماذا ومن ومتى.

كنت أقترب من النبيذ بحذر شديد، فلم أكن تذوَّقته من قبل، ولم أعرف تأثيره عليَّ، إلا أن فريد مال عليَّ وقال "كفاية كاس واحد عشان مانتفضحش". كنت مطيعة إلى أقصى حد، وقد سألته لماذا تقرع الكؤوس ليسمع رنينها عند الشراب؟ فأجابني بأن صوت الكأس إنما هو استخدام للحاسة الخامسة وهي السمع في التمتُّع بالشراب، حيث تُستخدم حواس النظر واللمس والتذوق والشمِ في العملية نفسها، ولم تبقَ إلا حاسة السمع التي أضيفت بهذه الطريقة. سلكنا طريقا آخر للعودة من خارج المدنية بعد أن ودَّعنا علي (مضيفنا) وصديقته.

- أخبار الفطار إيه إن شاء الله؟
- كله تمام يا هندسة، كل شيء في الثلاجة وتصحى تلاقي فطار خمس نجوم.
- المية تكدِّب الغطاس.
- غدا لناظره قريب.

دخل فريد غرفته وأنا أيضا، وقد أخذت دشا ساخنا وتعطَّرت بعطر الجيفنش الذي كان فريد أهداني إياه، بعد أن اشتمَّ رائحة العطر المحلي عليَّ عند عودته من إحدى سفراته.

لبست لباسا من قطعتين، إحداهما قميص نوم قصير شفاف يظهر من الجسد أكثر مما يخفي، ونقرت عليه الباب.

- إنت نمت يا هندسة.
- لا لسه بارِّي نوم.

- ممكن أدخل.

- أهلا بيكي.

- يا نهار إسود، إيه اللي إنتي عاملاه ده؟؟

ولم أردَّ عليه، واقتربت منه حتى تعانقت شفتانا، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا عارية بجواره في صباح اليوم التالي. أخذت في تقبيل كل جزء من جسده، لم يكن ما حدث أمس مثل الذي كان يحدث مع نافع، فقد كان شيئا مختلفا تماما، وكأن كل أجزاء جسدي تمتنُّ لمن بجواري. وعاودنا ما كان بالأمس صباح اليوم، وإذا بي أشعر أنني لم أتزوَّج قط، وأن ما كان يفعله المرحوم إنما هو حوار من جانب واحد، يبدأ وينتهي دون علم أو رغبة من الجانب الآخر.

وعندما عاد فريد من موقع البناء استرخى لساعتين بين أحضاني، ذهبنا للعشاء في مطعم مايكل القريب منا، هناك قابلنا الممثل المعتزل أحمد رمزي حيث أخبره فريد بأنه عائد من شرم الشيخ الأسبوع الماضي، وأنه كان في صحبة ابنته (ابنة أحمد رمزي) ومجموعة من الأصدقاء هناك حيث تقيم مع زوجها الذي يعمل مديرا لأحد الفنادق هناك.

ما كان في الصباح حدث في المساء، وازداد توهُّجا وإبداعا وتناغما وإيقاعا.

عدنا إلى القاهرة بعد أن قضينا ليلتنا الثانية، وأنا أقدح جناني لأسبغ عليه كل معاني الشكر والعرفان، وأصبحت أنادي فريد بـ"يا عمري"، نعم هو أصبح عمرا آخر لي.

كنت في طريق العودة ينازعني شوقي إلى ولدي الذي غاب عن حضني لليلتين، وإحساسي بانتهاء إجازة في الجنة مع فريد، فكنت كالطفل الذي يستعدُّ للفطام من الرضاعة.

وصرت أسأل فريد:

- هاشوفك تاني إزاي؟ وإمتى؟

طبعا كنت أقصد رؤية تختلف عن زياراتي له بالمكتب، فقد أصبحت علاقتنا الآن مكتملة تماما.

وكنت أقبِّل يده بين الحين والآخر وأقول له:

- ربنا ما يحرمنيش منك يا حبيبي.

أصبحنا نلتقي عندي في الشقة باستمرار، لم يكن دخول فريد العمارة مريبا لأي من البواب أو الجيران، حيث إنها عمارة صغيرة من ست شقق منها مكتب فريد، كنت أحيانا ألحُّ عليه لاصطحابي معه في إحدى سفراته الكثيرة، حيث كان دائم الترحال، وكأنه يجري وراء شيء، أو يهرب من شيء آخر.

لم أكن أسأله عن أي شيء يخصُّه، لم أكن أشعره بمسئولية تجاهي، إلا أنه كان يقوم بتمويل كل جوانب حياتنا أنا ونجلي عمر، كنت أشعر أنه صديقي وحبيبي وزوجي، لم أكن أشعر أن بيننا أي علاقة غير شرعية، فإن الزواج قبول وإيجاب وهذا ما بيننا، وأنه أيضا نفقة ينفقها الزوج القادر على الكسب على زوجته، وهو أيضا السكن والرحمة والودُّ الذي بيننا. رحت أقارن ما بيننا أنا وفريد وما بين جارتي إلهام وزوجها، فكثيرا من الأحيان كنت أسمع شجارهما، فهي تعمل بمرتب كبير، بالإضافة إلى مالٍ آل إليها بالميراث، وكثيرا ما كانت تعطي لزوجها بعض المال كي تتقي شره.

فهل علاقتي بفريد غير شرعية وعلاقة إلهام بزوجها علاقة شرعية؟ عجبا !! لم أتوقَّف عند ذلك كثيرا، ولكني كنت أدعو الله ألا يحرمني من هذه المنحة التي منحني إياها.

أرض الفـــيروز

أصبحت علاقتي بفريد هي بوابتي إلى عالم جديد لم أكن أعلم عنه شيئا، وكلما ازددت قربا منه زادت فرصتي في أن أرى ما لم أكن خابرته من قبل.

فقد صحبته في رحلة إلى سيناء، بدأناها بسيارته الجيب إلى مدينة شرم الشيخ، عندما عبرنا قناة السويس عبر نفق الشهيد أحمد حمدي انحرفنا يمينا بموازاة ساحل خليج السويس الشرقي، كان مرشدي (فريد) يقصُّ عليَّ كيف أن هذه الأرض استعادها الشعب المصري بالدم في عهد الرئيس الراحل أنور السادات، بعد أن أضاعها عبد الناصر بسلسلة من سياساته التي ما زلنا نعاني من بعضها حتى الآن. وكنت أتأمَّل كيف وصل جنود الاحتلال إلى هذا المكان من ضفة قناة السويس، ونحن ننهب الأرض بسرعة لا تقل عن ١٥٠ كيلومترا في الساعة، ولا نرى نهاية لهذا الطريق الطويل.

نعم كم هو عظيم جند مصر، وكم هو عظيم أنور السادات. وأنا بين تأمُّلاتي هذه قاطعني فريد بأننا عند مدينة "صدر" كما يسميها أهلها، وعلى مدخلها أحد مواقع الاحتلال الإسرائيلي وقد أصبح متحفا. قطعنا مسافة خمسمائة كيلومتر من القاهرة إلى شرم الشيخ، منها ٣٦٥ كيلومترا داخل سيناء مرورا بمدينة الطور التي هي عاصمة جنوب سيناء.

وفي فندق صغير وأنيق على خليج نعمة كانت إقامتنا، فقد تمَّ استقبالنا بكثير من الاحترام والترحيب، وكانت الساعة تشير إلى الخامسة عصرا.

وما أن ركبنا السيارة مرة أخرى بعد ساعتين من القيلولة حتى عاد فريد مرشدا محترفا من جديد، فهذا فندق موفنبيك، بناه حسين سالم صديق الرئيس مبارك وهو الرجل الأول والأقوى في شرم الشيخ، وهو أول فندق من فئة الخمس نجوم بهذه المدنية الجميلة الساحرة. ويتميز هذا بالفندق بالهدوء الشديد، وبجمال حدائقه ورائحة أزهاره، وأيضا مديرته السيدة السويسرية (بينوش)، وهي في العقد السادس من عمرها، ولكنها في قمة النشاط والحيوية، جميع من يستمتعون برياضة المشي في الصباح الباكر على مشاية خليج نعمة يعرفونها جيدا ويبادلونها التحيات.

يلي فندق موفمبيك فندق غزالة، ثم فندق هيلتون الفيروز، الذي يتميَّز بأكبر واجهة على شاطئ خليج نعمة، يتبعه فندق نوفوتيل، ويتميز بوجود أربعة سويتات فاخرة تطلُّ على خليج نعمة مباشرة، ثم فندق الماريوت الذي كانت أرضه قد خُصِّصت لأشرف مروان صهر جمال عبد الناصر، حتى اشتراها منه أحد المهندسين الذي كان يعمل في الاستثمار العقاري وبنى عليها هذا الفندق، يليه فندق صغير هو البستان الملاصق لفندق جافي لاند الذي يملكه أحد الضباط السابقين بالقوات المسلحة، ويعتبر هذا الفندق القاعدة الاجتماعية لمدينة شرم الشيخ، حيث إن مالكه (محمد الجافي) رجل شديد الكرم، وقد أحاط نفسه بعلاقات اجتماعية مع جميع العاملين المهمين في مدينة شرم الشيخ، وكثيرا ما يكون محافظ الإقليم ضيفا على مائدة هذا الرجل الكريم المضياف.

انتهينا إلى مدقّ إلى اليمين في اتجاه البحر، في نهايته يقع خليج القرش، صعدنا إلى مطعم بدائي تقدَّم فيه الأطعمة على الطريقة البدوية، وقد

استعجبت للخبز البدوي المطاطي الذي يتميز به أهل سيناء. يوجد فندق بدائي ملاصق للمطعم لراغبي السياحة البيئية، الذين يحضرون إلى هذا المكان للتخلِّي عن المدنية والرفاهية التي يتمتعون بها في بلادهم.

يمتلك الفندق والمطعم أحد البدو الذي تخرَّج بكلية الهندسة، وقد كان في زيارة القاهرة عند الاحتلال الإسرائيلي لسيناء. وقد رحَّب بنا وكان حديثه شيقا لطيفا.

وقد أخذ المهندس سالم (صاحب المطعم) يروي لنا ذكرياته في القاهرة أثناء الاحتلال، وكيف أنه في امتحان الرسم بالإعدادية طُلِب إليه أن يرسم هرما فلم يستطع، حيث إنه لم يكن قد رأى هرما في حياته قط.

وعلمت من المهندس سالم لماذا سُمِّيت هذه المنطقة بخليج القرش؛ ذلك لأن طبيعة المكان ضحلة، تبدأ بحوالي ١٠ أمتار بين الشُّعَب المرجانية ثم تهبط إلى عمق كبير يتجاوز ١٠٠ متر، لا يوجد به تيارات بحرية قوية مما يؤدي إلى وجود كائنات صغيرة تسمي البلاكتون، تعيش على أعماق بسيطة جدا، التي تجذب إليها حيوانا بحريا يسمَّى الحداية (المنتاري). تشبه أجنحة الحداية عندما تظهر من الماء ظهر زعانف أسماك القرش، فيصيح السياح عندما يرون الأجنحة تخرج من الماء: أسماك قرش فوق سطح الماء، فأطلق البدو هذا الاسم على هذا المكان، رغم أن المكان لا توجد به أسماك قرش مطلقا.

وما أن انضمَّ إلينا تامر لأنه صديق فريد حتى بدأت الأطباق الساخنة الشهيَّة في النزول أمامنا، كان طعامنا من سمك الشعور الذي يشتهر به البحر الأحمر وحيوان الحبار، دعاني تامر كي أغطس صباح اليوم التالي، أخبرته بأنني لا أعرف العوم وأنني أغطس في شبر ميه، ولكنه قال لي:

- وما علاقة الغطس بالعوم؟

اتفقنا على أن نقوم ثلاثتنا بغطسة عصر اليوم التالي في منطقة نير جاردن بخليج نعمة.

أخبرني فريد في طريق عودتنا بأن تامر من أفضل الغطاسين في المنطقة، وأنه حاصل على جوائز عالمية في التصوير تحت الماء، وأنه قد حصل على جائزة أحسن مصوّر تحت الماء في العالم العام الماضي، كما أنه يمكن لي أن أستمتع بغطسة بصحبته بعد قليل من التدريب عصر الغد. راحت رأسي مرة أخرى تسرح في هذه الآفاق التي أصبحت أحلّق فيها بتمكُّن شديد، سيناء، والبدو، والغطس، وهذه المفردات الجديدة التي لم تكن تأتي إليَّ حتى في أحلامي، وكنت دائما ما أتخيل ولدي وسط هذه الأحداث والأجواء.

في صباح اليوم التالي بعد تناول إفطار شهي متعدِّد المكوِّنات، وسط ضجيج السياح الإيطاليين اتجهنا شمالا إلى مدخل شرم الشيخ، وعند خليج شرم المياه كان فريد على موعد عمل قد تمَّ ترتيبه بنادي الرياضيات البحرية الذي علمت أنه هو أهم مكان في عالم البناء والمعمار في شرم الشيخ، حيث يقطن به كل من جاء لبدء أعمال سواء في بناء فندق أو عمارة أو فيلا؛ ذلك بسبب وجود رئيسه اللواء حسن كراوية، وهو رجل لطيف يساعد كل من قدم إلى المنطقة للتعرُّف على ظروفها وخباياها، وهو من يساعد في تعارف الوافدين الجدد إلى المدينة على الشخصيات المقيمة بها، وتقوم بأدوار لازمة للتوسُّع والامتداد. فقد كان عمدة المدينة في هذا الوقت بحق، كما كانوا يتمتَّعون برخص ثمن الغرفة الذي لم يكن يتجاوز السبعين جنيها في الليلة، بالإضافة إلى الإفطار المصري المكوَّن من الفول والطعمية وما إلى ذلك. وتركنا فندق نادي الرياضيات بعد أن مكث فريد حوالي ساعة في جلسة

عمل مع أحد المهندسين هناك بعد أن تناولنا الشاي مع اللواء حسن بمكتبه.

مررنا على فندق الخيمة البدائي الملاصق له، حيث تناولنا القهوة في ضيافة الدكتور نبيل صاحب الفندق، ودار حديثهما عن تطوير وإعادة تأهيل الفندق ليكون مائتي غرفة حديثة، خصوصا أن مجلس المدينة لديه خطة لتنظيف خليج شرم المياه الذي كانت تستخدمه المجنزرات الإسرائيلية للتدريب إبان الاحتلال. وأن هناك نية لنقل الميناء من هذا المكان قليلا إلى الجنوب، حيث ينتهي تعرُّض هذا الخليج إلى زيوت ومخلَّفات المراكب.

في طريقنا إلى نادي الرياضيات من خليج نعمة لم تكن هناك أي مظاهر بناء أو معمار، إلا في منتصف الطريق في قطعة من الصحراء بدأت المباني تظهر فيها، علمت أنها حي سكني سمِّي "حي النور". وأشار فريد إلى صخرة على يمين الطريق على شكل بروفايل الرئيس الأمريكي الأسبق كيندي وقد سُمِّيت رأس كيندي.

صعدنا يمينا إلى هضبة "أم السيد"، التي اختلفت الراويات على سبب تسميتها بهذا الاسم، فإحدى الروايات تقول إنه اسمها كان هضبة الموساد نسبة إلى جهاز المخابرات الإسرائيلي المعروف، وتحوَّر الاسم هكذا على ألسنة البدو. وأخرى تقول إن المجنَّدات الإسرائيليات كنَّ يعرضْن صدورهنَّ العارية للشمس في هذه المنطقة، وأن الثدي في اللغة العبرية يسمَّى "السيد".

ولكنها منطقة ساحرة يوجد بها فندق واحد وهو هيلتون ويقع على حافة الهضبة، وقد أقيم له مصعد ليأخذ روَّاده إلى أسفل الهضبة حيث الشاطئ. كما تتميَّز المنطقة بأنها سكن فاخر للأثرياء ومحبي المتعة والهدوء،

وقد سمِي الشارع الرئيسي بالهضبة باسم خالد أبو سيف، نجل المخرج المعروف صلاح أبو سيف الذي التقيناه لاحقا وهو يتميَّز بقامة طويلة ودماثة الخلق، ولطف الحديث.

كانت البيوت على اليمين من طابق واحد وتطلُّ مباشرة على حافة الهضبة، أسفلها جزء ساحر من البحر الأحمر، وهو في هذا المكان هادئ صافٍ جميل اللون، أما على اليسار فيقع صف آخر من المنازل ذات طابقين. وفي نهاية الشارع إلى اليسار على حافة الهضبة تقع أربع فيلات لإحدى العائلات القبطية المعروفة، والذي كان عميدها المرحوم كمال بك يقضي أسعد أوقاته في هذا المكان المميز الرائع. انحرفنا يمينا إلى مزلقان في نهايته فنار ومطعم بدائي سمِي بمطعم الفنار، كانت مراكب الغطس تحوم حولنا من اليمين والأمام، بعضها راسيا مكانه لتمتع روَّاده بالغطس مع أنابيب الهواء، وكذلك العوم مع استخدام النظارة ذات الأنبوبة الهوائية للتمتع بمناظر الأسماك والشُعَب.

في طريق عودتنا إلى الفندق مررنا بمنطقة أخرى رائعة على البحر تسمَّى التور، وقد علمت من فريد أن أولي الأمر قد قسَّموها بين اثنين من رجال الفنادق أحدهما يمتلك سيارة رولزرويس زرقاء.

- هنرتاح ساعة ونخرج لمقابلة تامر بالمايوهات عشان الغطسة اللي اتفقنا عليها امبارح.

- ما عنديش مايوه.

- إزاي؟

- هو أنا كنت باعرف أعوم عشان أجيب مايوه؟

دخلنا إلى أحد محالِ الفندق، كان مملوكا لسيدة يبدو أنها تعرف فريد جيدا، وكذلك كل أهل شرم الشيخ، وهي سليطة اللسان، عالية الصوت،

لكنها أخيرا خفيفة الظلِّ وإن كان كلامها لا يخلو من فُحش واضح باللفظ والإشارة.

- إيه يا خويا هي نسوان شرم الشيخ خلصت لما انت جايب لنا مُزَّة من مصر طول بعرض؟!

- بلاش قلة أدب، وهاتي مايوه للدكتورة وخلِّصينا.

- دكتورة كمان؟ خدي يا اختي قيسي، اللي خدته القرعة تاخده أم الشعور.

- لا أنا هاقيس جوه في الأوتيل، ولو احتجت أصحَّح المقاس هاجي تاني.

- طيب يا حلوة ابقي خلينا نشوفك.

وما أن دخلنا الغرفة حيث سبقني فريد إلى دش منعش تبعته إليه، ثم لبست المايوه ذا القطعتين.

- إيه رأيك يا باشا؟

- دي حاجة جامدة أوي.

- يعني تمام؟

- ربنا يستر.

ولم أكن أتصوَّر أنني سوف أخرج شبه عارية هكذا وسط الناس، فقد كانت قامتي الطويلة وجسدي الممشوق وبشرتي السمراء تميّزني عمن حولي من شقراوات الأجانب، اللائي قد تتخلى الكثيرات منهن عن الجزء العلوي من المايوه، أما الجزء الأسفل فكن يتفنَّن في حشره بين الثنايا حيث لم يكن الجزء المغطَّى من أجسادهن يزيد على بضعة سنتيمترات مربَّعة لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة. وبين خجلي ورغبتي المحمومة في خوض التجربة حتى النهاية، وكذلك كل ما يعن لي من تجارب، لففت نفسي في بشكير ذي ألوان مميزة تميّزه عن باقي بشاكير الفنادق المجاورة، حيث يختلط الرواد على البحر ثم يعود كلٌّ إلى فندقه.

وقابلنا تامر، وقصدنا أحد نوادي الغطس على الخليج، وهو عبارة عن مكان تُستأجر منه أجهزة الغطس، فعلى كل منا أن يبدأ في لبس البدلة الخاصة بالغطس، وهي تسمي "وت سوت" ومعناها البدلة المبللة، وهي من الكاوتشوك، ومن الخارج ذات نسيج مثل القطيفة حيث تتشرَّب الماء الذي يحصل على حرارة الجسم وتمنعه من تغيير الماء، مما يحافظ على حرارة الجسم، يُلبس جاكيت مطاطي فوق البدلة به خزان يتَّصل بأنبوب الهواء المركَّب على الظهر من خلال خرطوم، يتم ضخُّ دفعات من الهواء إلى الجاكيت يؤدي ذلك إلى اتزان الغطاس على العمق الذي يرغب فيه، يتَّصل الأنبوب الذي يثبَّت على الظهر بخرطوم آخر ينتهي بجزء من الكاوتشوك يسمَّى منظم التنفس، يتم القبض عليه بين أسنان الغطاس وشفتيه لأخذ النفس من الفم، وتصفية هواء الجاكيت ويؤدي ذلك إلى النزول في عمق الماء. ويتمُّ تزويد الغطاس بحزام من الرصاص مصمَّم بحيث يمكن زيادة أعداد قطع الرصاص بالحزام أو تقليلها، طبقا لوزن راغب الغطس.

يقوم أحد موظفي نادي الغطس بمساعدة المبتدئين أمثالي لاستكمال اللبس والقدرة على التحوُّل إلى ضفدع بشري حقيقي.

أخذت زعانف الأقدام، وكذلك نظارة الغطس لتثبيتهما عند بداية الغطس. وتحرَّكنا إلى لنش صغير كان في انتظارنا عند المارينه أمام فندق مارينا شارم، الذي عرفت بعد ذلك من فريد أنه كان الفندق الوحيد في المنطقة أيام الاحتلال الإسرائيلي، وأنه قد بُنِي في حضن الجبل اتقاءً للسيول التي كانت تُغرق المنطقة المعروفة بخليج نعمة كل عدد من الأعوام لتحوِّلها إلى مكان بكر من جديد.

وما أن انطلق بنا اللنش قاصدا مكان الغطس حتى رحت أقارن بين هذا المشهد وما كان يحدث لنا ونحن محشورون في القارب ذي المجاديف، عندما

كنا نقصد زيارة جدتي في العيد بجزيرة الوراق. ورحت أقارن بين الوجهين المصريين لقائد اللنش المبتسم المتفائل ذي البشرة السمراء المشرَّبة باللون البرونزي الممنوح من أشعة الشمس، والعروق والعضلات تبدو واضحة تحت التي شيرت، من ذلك البائس الفقير الضعيف ذي الجلباب الرثّ والذوق المعدوم في معاملة الركاب بالوراق.

كان طموحي الزائد، ورغبتي الشديدة في خوض التجارب إلى نهايتها هما اللذان يقاومان مشاعر الخوف والرهبة عندي، فإن علاقتي بالماء في السابق لم تكن تتعدَّى الطشت النحاس الذي كان دائما محلَّ فخر أمي بأن أهلها قد زوَّدوها به في الجهاز. وكذلك البانيو الذي عرفته بعد تطوُّر الأحوال، أما هذا البحر المتلاطم غير المعروف النهايات فلم أكن قد خابرته قبل ذلك قط. ولم تدم حيرتي كثيرا، وكذلك رهبتي وخوفي، حتى وصلنا إلى مقصدنا، وهنا بدأ تامر يشرح لي ما الذي سوف يتم عمله، كما أخبراني هو وفريد بأنه لا مجال للخوف، حيث سوف يكونان بجواري، كل ما عليَّ أن أهدأ، وأن تكون حركاتي بطيئة جدا؛ اتقاء استهلاك الطاقة، وأن التنفُّس يجب أن يكون عميقا بطيئا، وأننا سوف ننزل إلى مسافة حوالي عشرة أمتار، وعند النزول يجب معادلة الضغط على طبلة الأذن كل متر تقريبا، وذلك بقفل الأنف بالأصابع وضغط الهواء لإعادة التوازن على طبلة الأذن، وأنه علينا البصق في زجاج النظارة الداخلي ودعكه جيدا ثم إعادة غسله بماء البحر حتى لا يلتصق به بخار الماء المنبعث من الزفير. وعند تسرُّب بعض الماء إلى النظارة، فإنه عليَّ أن أضغط على الجزء الأعلى مع إطلاق زفير من الأنف لطرد الماء، وضعت منظِّم التنفس بين أسناني ورضابي لأتنفس من الفم. والآن أخبرني أنه عند إلقاء نفسي في الماء سوف أطفو بفعل الهواء بالجاكيت، ليقوم تامر بتفريغه للنزول بعد أن يكون قد أمسك بي، وعلَّمني مجموعة من الحركات

والإشارات ودلالاتها، وكيف أخبره بأنني راغبة في الخروج، أو الصعود، أو إنهاء الموقف كلية والخروج من الماء. أكد لي فريد وتامر أن ما أعلمه الآن عن الغطس هو ما يعلمه كبار الغطاسين في شرم، وقد أخبرتهما بأنني سريعة التعلُّم لكل شيء.

علمت أننا بعد الهدوء على المستوى المطلوب، وبعد أن أثق بنفسي ومن حولي، فإننا سوف نقوم بجولة على نفس الارتفاع، والتحرُّك سوف يكون هادئا، وفي حالة الرغبة للصعود قليلا فإنني آخذ نفسا عميقا لزيادة الهواء في الرئة ذلك يرفعني قليلا، وعند طرد الهواء أكون قد عدت إلى المستوى السابق.

ما أن لامس الماء جسدي حتى أكَّدت لنفسي أنني قد وضعتها في يد أمينة وقوية على تحمُّل المسئولية. غُصنا أنا وتامر الذي كان ممسكا بي، وفريد على بُعد خطوات منا، لم أكن أعلم ما هذا الصفاء، وما هذه المناظر العجيبة التي أراها، سبحان الخالق، كيف أن هذا العالم الموجود أسفل المياه لا يعنُّ لأحد أن يعلم عنه شيئا، كان الصمت عجيبا والمتعة لا تضاهيها متعة، وجدتني أتخلَّى عن القلق والتوتر، وأعود إلى طبيعتي سريعة التعلُّم لكل شيء، وكذلك التأقلم في أي ظروف. وبين شِعَاب متعددة الألوان، وأسماك راقصة كأنها عصافير الجنة، وقواقع ومحار يفتح ويغلق، وكذلك أحياء دقيقة لا أعلم ما هي بالضبط ، وصمت رهيب، رحت أسبح وأتجوّل وكأنني أطير في عالم من الخيال، كنا ثلاثتنا نتبادل الإشارات، أصبحت بعد قليل أشعر بالثقة، وأنني لست وافدة جديدة على هذا العالم الغريب.

خرجنا إلى السطح مرة أخرى، وقد علمت أننا قد قضينا ساعة تحت الماء، كانت هذه الساعة بمثابة بوابة أخرى إلى عالم لم أكن أدري عنه شيئا. في

رحلة العودة إلى الشاطئ كان التعب قد حلَّ بي، وبدأت أشعر بوزن حزام الرصاص حيث بدأت أتخلَّص من كل شيء على اللنش، وأعود وألتفَّ مرة أخرى بالبشكير. سألت فريد عمن هي نعمة التي سُمّي الخليج على اسمها، وإذا به يضحك ويخبرني أن هذا الشاطئ الرملي كانت السلاحف المائية تضع بيضها تحت رماله، وأن البدو من أهل سيناء يُطلقون على السلحفاة المائية النعمة أو النعمامة، وكذلك أطلق هذا الاسم على هذا الخليج الرائع الفريد. وبعد عدة غطسات مع تامر وفريد وأصدقاء آخرين مميَّزين في هذه الرياضة العجيبة الرائعة، حصلت على رخصة تؤهلني للنزول دون مدرِّب، وأصبحت أعلم نقاط الغطس المميزة، مثل فارجاردن ورأس محمد وبلو هول وغيرها، وقد استمتعت كثيرا بالغطس في هذه الأماكن بعد ذلك.

من الغوص في أعماق البحر إلى الغوص في سُبات عميق بالفندق، حيث إن المجهود كان كبيرا، ولم نستيقظ الا بعد ثلاث ساعات. خرجنا لتناول العشاء في مطعم هندي يطلُّ على الخليج في فندق سوفوتيل، الذي كان في السابق مدرسة للبيئة، وقيل إن مبارك قد خلع هذا المكان على الشيخ زايد أمير الإمارات ليحوِّله إلى فندق جميل ومميز، لم يكن معنا على العشاء أحد، وكنت أتأمَّل ذلك الرجل الذي أصبح لي نافذة على العالم، هذا العالم الآخر، هذا المجهول، وماذا أنتظر أيضا؟ وماذا تخبئ الأيام لي؟ وهل ما زال في جعبته ما يُبهرني وتتوق إليه النفس؟ كيف ذلك؟

إن الإنسان دائما يطمح فيما يعلم، ولكن طموحي ورغباتي من نوع آخر، فهي تتَّجه إلى حيث لا نهاية، وأحسست أن هناك واجبا واحدا عليَّ، هو أن أكون طوعا مخلصة لهذا الرجل، وصرت أتفنَّن في إرضائه على كل المحاور، وكنت أستطيع أن أقرأ أفكاره ورغباته من نظرة واحدة في عينيه، وأخيرا أصبح عندي الكي بورد، ولكني كنت حريصة على عدم استنزافه من جميع

النواحي. حتى يبقى لي هكذا كما هو. وبعد عشاء متنوّع مليء ببهار الهند الذي يبدو أنه ألهب شوقي إلى حبيبي، تبادلنا النظرات واتفقت عينانا على وجهتنا القادمة، وهي غرفة الفندق الهادئة، وكأنني أقول لنفسي إن هذه ليلتي. تركني فريد في صباح اليوم التالي وذهب إلى أعماله. قضيت نهاري مرتخية أمام حمام السباحة بين الإغفاء والتنبُّه والتأمُّل والتذكُّر. لم يقطع صمتي إلا صوت صاحبة محلِّ الأمس:

- صباح الخير.
- أهلا وسهلا.
- هو راح فين؟
- مين؟
- حبيب القلب.
- راح شغله.
- قولي لي الحلاوة دي كلها منين؟
- أنا من المعادي.
- ومن إمتى بقى تعرفي فريد؟
- من حوالي سنة.
- ياه، ده انتي شاطرة أوي.
- ليه بقى؟
- أصله عينيه زايغة وبتاع نسوان على كيفك.

لم أدرِ إلا وأنا أدافع عنه، وكأنه زوجي، لم أكن أرى منه ذلك، فقد كنت أنا البادئة معه، وهل كلامها في محلِّه وأن احترافه في تكوين العلاقات النسائية هو الذي رتَّب لي كل ذلك؟ فأنا لم أشعر لحظة معه أنه كذلك، ولم أكن معه كالذئب والحمل، فهل كانت الفريسة هي التي تستبق الصائد إليها؟ حتى

رغباتنا ولقاءاتنا، لم يكن هو يسبقني إليَّ بقدر ما، لكننا كنا على دقة واحدة، نقترب من بعضنا وكأننا قد خُلقنا من أجل بعضنا، وارتفع صوت ضحكاتها قاطعا أفكاري، مؤكدا انطباعي تجاه هذه الأنثى الفضولية، وإذا بها تودِّعني وتنصرف.

في المساء رحت أتفرَّس الأوجه المتراصَّة حول مائدة قد اتَّجهنا إليها بعد عشاء بالفندق، ذلك في الشارع الرئيسي بفندق صنافير، الذي أطلق عليه صاحبه هذا الاسم نسبة لإحدى الجزر بخليج العقبة الذي تقع شرم الشيخ على مدخله الجنوبي. كانت العصائر الباردة والشيشة حولنا على المائدة، وقد حضر توا من القاهرة أحد أصدقاء فريد، علمت أن هذا الرجل هو زوج ابنة أحد الوزراء المهمين، وأنه جاء من أجل بيع ورقة تخصيص أرض قد منحها له محافظ جنوب سيناء بناء على طلب حماه، وأنه قد حصل على نصف مليون جنيه ثمنا لها، وأن ذلك لم يكلِّفه إلا عشرة آلاف جنيه مقدَّم ثمن الأرض أودعها صباحا بحساب المحافظة بالبنك، حيث إن تذكرة الطائرة صدرت مجاملة من مصر للطيران، وأن أحد أصحاب الفنادق الذي دائما ما يرحِّب بمثل هذه الشخصيات ليكونوا في ضيافته قام باستضافته حتى أنهى مهمَّته. فقد كانت عقود التخصيص للأراضي من الدولة هي أسرع وأسهل الطرق لإثراء من كان النظام يرضى عنه، لم يكن مبلغ نصف مليون جنيه مبلغا كبيرا بالنسبة لما كان يحدث من نهب منظَّم لثروات البلاد بهذه الطريقة.

انضمَّ إلينا اللواء خليل، ذلك الرجل الطويل العريض الرياضي، الذي يُعتبر من أهم شخصيات المنطقة، حيث إنه مدير المسطَّحات المائية في جنوب سيناء، وهو الذي يصدر تصريحات المراكب بالحركة، وقد بدأ عمله في شرم الشيخ منذ أن كان برتبة رائد، وهو شديد العلم بكل دقائق وشخصيات

المنطقة، وهو أيضا لاعب اسكواش وغطاس متميّز يصحب أبناء مبارك في اللعبتين دائما.

يتميّز اللواء خليل بحكايات كثيرة متعددة، وخفَّة دم شديدة، وأدب وتواضُع جم، وعلمت أيضا من فريد أنه رجل نظيف اليد. وكان معنا أيضا على الطاولة الحاج (أ) الذي انتهى به الحال مقاولا في شرم الشيخ، وكان معه زجاجة من الويسكي أتى بها، وقد حكى لي فريد عنه بعد أن انصرفنا، أن أحد الأصدقاء الماكرين قد منحه إحدى فتيات أوكرانيا لتكون ضيفة عليه في إحدى الليالي، وقد أعطاه برطمانا به مادة وأوصاه أن يأخذ منها فتفوتة بعود كبريت كي يدلِّك بها عضوه تمهيدا لليلة ليلاء.

لكنه كان طماعا، فأخذ من البرطمان كثيرا، مما أسقط جلد عضوه، وانتهى به الأمر جالسا في طشت محاليل لمدة ساعتين يوميا، بعد أن شهق الطبيب وصاح "لا حول ولا قوة إلا بالله" بعد أن رأى إصابته.

رأيت في شرم الشيخ عالما مختلفا من البشر، فلم يكن أحد يسأل أحدا عن أمور شخصية، أو يتدخَّل فيما لا يعنيه، كان الجميع يرحِّب بالجميع، دون معرفة كافية أو رغبة في مزيد من المعرفة، كما كان وداع الجميع هادئا خاليا من أي مشاعر على وعد لقاء آخر قد يتحقَّق أو لا. لم يكن أحد يتدخَّل في حياة أحد، ولم يكن أحد يخوض في علاقات شخصية، إنما هي مائدة يتراصُّ حولها من أتى إلى هذا المكان كل ليلة دون موعد أو اتصال.

تطلُّ هذه المائدة على الشارع المميز بخليج نعمة الذي يبدأ بفندق موفنبيك وينتهي بحديقة تشبه حدائق بابل المعلَّقة على الجبل المقابل، مرورا بسوبر ماركت الشمندورة الذي كثيرا ما كان ينام داخله كثير من أعلام شرم الشيخ الآن، قبل انتشار أجهزة التكييف بها، ثم فندق صنافير الذي كان موقعه

على البحر مباشرة، ونظرا لكراهية أولي الأمر بشرم الشيخ لصاحب هذا الفندق فقاموا بتوزيع صف آخر من الفنادق يبدأ بفندق كنابش، ثم سوق لأحد القاهريين به قهوة سميت بالفيشاوي نسبة لقهوة الفيشاوي المعروفة بحي الحسين، وفندقين آخرين أحدهما ليلينا ولآخر نيوتيران لنفس الرجل صاحب الرولزرويس الزرقاء (ج. ع).

ورغم أن توزيع صف من الفنادق أمام صنافير الذي يليه فندق ومدرسة غطس الجمل ثم فندق تيران في نهاية الصف، فإن المسافة بين الصف الأمامي من الفنادق والخلفي أنتجا أجمل شوارع شرم الشيخ الذي أطلق عليه أهل شرم الشيخ الشانزليزيه نسبة للشارع الباريسي المعروف.

يمتلك فندق صنافير رجل متميز موهوب، حاد المزاج طموح الأفكار -هكذا أخبرني فريد- فأنشأ به أكثر صالات الديسكو تميُّزا، وأطلق عليها bus stop وهي كلمة تعني بالعربية موقف الأتوبيس، وقد أطلق هذا الاسم عليها إشارة للفيلم العالمي بهذا الاسم لمارلين مونرو، في أغلب ظنِّ أهل شرم الشيخ، والتي أصبحت مقصدا حتميا لكل زوار المدينة الهادئة.

كان فندق صنافير ويليه مدرسة الجمل للغطس وكثير من فنادق شرم الشيخ ذات طابع معماري خاص قد أضفاه عليه المعماري الموهوب همام المستكاوي، شقيق عدلي صاحب فندق صنافير، ذلك المعماري الذي ترك العمل في فرنسا وأتى إلى منطقة شرم الشيخ، ولم يكن يرغب في تركها إلى أي جهة أخرى، بعد أن أخذه جمال طبيعة هذا المكان.

كانت الساعات تمضي سريعا، والأحداث متلاحقة كلها جديدة تماما بالنسبة لي، والشخصيات المختلفة بعضها لم أستطِع هضمه، والبعض الآخر كان بمثابة فرجة لي.

كان فريد على موعد في منطقة جديدة تسمي نبق، وهي إلى شمال مطار شرم الشيخ، الذي كان يطلق عليه مطار نصراني: نسبة إلى رأس نصراني التي تقع خلف المطار ناحية البحر. وقد صحبته في هذا المشوار حيث عاد مرشدا مخلصا كعادته، فبعد أن ممرنا بمجموعة فنادق خليج نعمة مرورا بفندق الجافي، الذي تلاه فندق سونستا على نفس الخليج، كانت المدقَّات على اليمين توصلنا لمجموعة أخرى من الفنادق العملاقة تحت الإنشاء ثم فندق الشيخ كوست الذي يمتلك معظم أسهمه أحد رجال المافيا الايطالية، وأن عدد غرف هذا الفندق قد تعدَّى الألف.

عندما انحرفنا يمينا في اتجاه البحر قبل المطار، كان علينا أن نسير بمحاذاة الشاطئ مرة أخرى خلف المطار. رأينا جزر تيران وكذلك المضيق المتحكِّم في مدخل خليج العقبة، والذي كان عبد الناصر أغلقه في وجه الملاحة الإسرائيلية، مصعِّدا للتوتر بيننا وبينها في مايو ٦٧، بعد أن أنهى مهمة مراقبي الأمم المتحدة في هذه المنطقة، حيث دار الحديث الشهير بينه وبين قائد جيشه عبد الحكيم عامر -الذي كان قد قلَّده رتبة المشير- فطمأنه قائلا له:

- برقبتي يا ريس.

وانتهى الحال به مقتولا، طبقا لمعظم الروايات وأكثرها عقلانية.

لم تكن إسرائيل تملك حق المرور في خليج العقبة، إلا عقب حرب ٥٦ فقد كانت إحدى غنائم ونتائج هذه الحرب لإسرائيل أن تمرَّ سفنها في خليج العقبة المؤدي في نهايته إلى ميناء إيلات الإسرائيلي. وعندما منع عبد الناصر سفن إسرائيل من المرور كان يعد ذلك تصعيدا في التوتر بين الجانبين، انتهى بحرب ٦٧ التي احتلت إسرائيل سيناء خلال هذه الحرب التي يطلق

عليها حرب الأيام الستة أمام انحسار وتراجع جيش عبد الناصر بقيادة عبد الحكيم عامر.

المسافة بين مصر والسعودية في هذا المضيق تعتبر قريبة جدا، وهناك مشروع لإقامة جسر يربط الدولتين في هذا المكان، إلا أنني علمت أن مبارك لا يرغب في إقامة هذا الجسر؛ حتى لا تزيد الحركة على مدينة شرم الشيخ التي أصبح يعتبرها عزبة أو ضيعة مملوكة له ولأبنائه.

كان المعمار على قدم وساق في هذه المنطقة، حيث يقام عدد من الفنادق والمنتجعات الفخمة، واصلنا السير حتى منطقة تسمَّى الغرقانة نسبة لإحدى السفن الشاحطة في هذا المكان، التي لا تزال موجودة حتى الآن، وكان الموقع من حولنا عبارة عن حقول ألغام حيث قامت إسرائيل بتلغيم هذا المكان عند الاحتلال، وكان على كل مستثمر يرغب في البناء في هذه المنطقة أن يلجأ إلى القوات المسلحة المصرية؛ لتطهير أرضه من الألغام، حيث إن هذه المنطقة تستعد لتكون امتدادا لمدينة شرم الشيخ.

مررنا بأحد أصدقاء فريد الذي شرع في بناء فندق في هذه المنطقة، وقد اختار له اسم "زوارة"، استغربت كثيرا الاسم، بعد انصرافنا رحت أسال عن دلالة هذا الاسم العجيب.. أجابني فريد بأن هذا الاسم يطلق على مناسبة بدوية تتم مرتين في العام، ذلك أن قبائل البدو تجتمع في أحد الوديان ويتجمَّع الشباب من القبائل المختلفة، يرقصون الرقصات الفلكلورية الموروثة عندهم، الفتيات يرقصن أيضا، والظلام الدامس يلفُّ المكان، حيث إن هذه الليالي تكون من الليالي غير المقمرة، وذلك لكي تتعارف الشابات المقبلات على الزواج على الراغبين في ذلك من الشبان، من خلال الرقصات في الظلام، تلي هذه الزيارة أو الزوارة -كما يطلق عليها- كثير من الزيجات بين قبائل البدو بالمنطقة.

وفي المساء كان موعدنا لقضاء ليلة بدوية في أحد الوديان القريبة من شرم الشيخ، وصلنا إلى هذا الوادي، والجبال تحيط بنا من كل جانب، دقات الموسيقى تنبعث بالرتم البدوي المميز حيث كانت مجموعات من الشباب يرقصون الرقصات البدوية.

لم تكن هذه الليلة كسابقتها، فراحت إيماءات وإشارات سيدة البوتيك تتجوَّل في خاطري، ورحت أسأل نفسي بل أحاورها ماذا لو تخلَّى عني فريد؟ وأي رباط يربط بيننا، حتى وإن كان رباط الزواج؟ فإن حلَّ هذا الرباط سهل وسريع، وأي أمان أتمتَّع به الآن؟ لقد رأيت من الدنيا ما لم أكن خابرته، وأين مستقبلي ونجلي مما أراه أمامي من حياة تموج بكل معاني المتع والحيوية؟ فماذا عليَّ أن أفعل حتى أصبح ونجلي ضمن هذه المنظومة دون الاعتماد على رجل قد يرحل عنا في أي لحظة؟ ماذا عليَّ أن أفعل؟؟

ظلَّ هذا السؤال عالقا في رأسي، لم أعد أهنأ بأي إجازة أضع نفسي فيها في يد فريد كما كان يحدث قبل ذلك، تسرَّبت إليَّ المخاوف والهواجس، أصبح القلق صديقا جديدا وسامرا أقضي معه ساعات الليل الطويلة.

كانت هواجسي هذه تدفعني لدراسة أحوال كل من حولي، كيف أصبح مثل هؤلاء الناس ميسوري الحال؟ وما هو طريق الأمان والغنى؟ لم يكن وضعي كطبيبة حديثة التخرج ورؤيتي لمستقبلي القريب والبعيد متفائلة بأي شكل، فالمرتبات ضعيفة جدا، وطريق الدراسات العليا طويل ومكلِّف بما لا أطيق، كان عليَّ أن أعود إلى أستاذي ورائدي وحبيبي لأتطارح معه الأفكار حتى أعلم هل يريدني عشيقة فقط، أم سوف يساعدني لتطوير حياتي بغضِّ النظر عن مستقبل هذه العلاقة بيننا.

كان الطريق إلى دهب يمرُّ بين جبال متعددة الألوان، وصحراء شاسعة تتخللها بعض الأودية والتجمعات البدوية أحيانا. وما أن وصلنا إلى مقصدنا، فإذا بنا في فندق لطيف يطلُّ على خليج رملي هادئ، تمتَّعنا بصفاء مياهه ولون رماله الذهبية. كان السياح من حولنا بكثافة أقلَّ كثيرا مما كانت عليه في خليج نعمة بشرم الشيخ.

وفي العصر توجَّهنا إلى شواطئ العسلة والمضبط القريبة منا، كان هذا الشاطئ الخاص يتميَّز بمحال البدو التي تبيع المنتجات البيئية من الملابس وغيرها من صناعة البدو، وتقع المطاعم والمقاهي التي تقدِّم الأطعمة الغربية بجانب الأسماك وطعام أهل سيناء، وكذلك الشيشة والمشروبات المختلفة. يتميَّز هذا المكان الفريد بأنه يضاء ليلا بالشموع التي توضع داخل زجاجات المياه الفارغة لتعطي جوا فريدا مميزا تنفرد به هذه المنطقة، وكانت مياه البحر التي عكست أشعة القمر -حيث كان بدرا في هذه الليلة- قد أصبحت بلون الفضة بعد أن زفَّت إليها أضواؤه.

تناولنا طعام العشاء وسط هذا المزيج من السحر والهدوء وأضواء الشموع المتناثرة في كل مكان، لم يكن يعكِّر صفو هذه الليلة إلا خزعبلات الفكر التي كانت تقتحم رأسي بين الحين والحين. لكننا غادرنا المكان بعد أن انتصف الليل، وأكملنا ليلتنا في شرفة الفندق؛ حيث كان الخليج الهادئ صفحة صافية للأضواء المنبعثة من البدر المعلَّق بين السماء والأرض.

دارت رأسي بعد كأسين من النبيذ الفرنسي الفاخر، لأعود أنثى من جديد بين أحضان حبيبي في ليلة خلدنا فيها للنوم مع أضواء الفجر.

لم يتبقَّ لنا في هذه الرحلة المتنوّعة سوى ليلتين رتّبنا قضاءهما في فندق هليتون القابع على حدود مصر الشرقية.

تحرّكنا في صباح اليوم التالي شمالا نحو طابا مرورا بميناء نويبع الذي يقع على خليج العقبة؛ حيث تعمل العبّارات لنقل الركاب بينه وبين ميناء العقبة بالأردن، ليتحرّكوا نحو وجهتهم النهائية إلى بلادنا العربية الواقعة في آسيا كالسعودية والعراق والأردن التي يقع فيها هذا الميناء. وفي طريقنا شمالا من مدينة نويبع وحتى طابا كانت تظهر على الجانب الآخر من البحر يمين السيارة شواطئ السعودية، وكأنها تجيبني عن أسئلتي.. نعم السعودية هي الحل؛ فقد علمت أن أحمد نجل عم علي، الذي ضبطتني أمي ألعب معه عروسة وعريس في صغري، قد ذهب هناك وتغيَّر حاله، وأصبح والده من سكان زهراء المعادي في شقة اشتراها أخيرا لدى عودته بعد سنوات من العمل هناك.

كان الطريق حتى نويبع يمرُّ بين الجبال والصحاري، مثل الطريق من شرم الشيخ حتى دهب تقريبا، وفي نهاية الطريق يوجد منزلق كبير ينتهي إلى الميناء أو المدينة، وإذا انحرف المسافر يسارا كانت بقية الخليج حتى طابا هي المقصد. رحت أردُّ على نفسي كيف يمكن لي أن أعيش وحدي ونجلي في مثل هذه الدولة ذات المرجعية الخاصة، والظروف التي لا تسمح لسيدة مثلي أرملة وحيدة أن تعيش وتعمل بمفردها هناك.

المسافة من نويبع إلى طابا تقريبا سبعون كيلومترا على ساحل البحر، تتخللها أشكال وألوان نادرة من الجبال والوديان، فاللون الأصفر والأزرق بين الصحراء والماء يتوسّطهما شريط من الأسفلت شكّلا ألوان الطريق، وكان الأحمر والأصفر البرتقالي وكذلك الأخضر الداكن والأسود كانت تطل علينا من جبال يزداد ارتفاعها كلما اقتربنا من وجهتنا في نهاية الخليج. أما

تعرُّج الشواطئ وارتفاعها وهبوطها وتباين أشكال الشواطئ بين رملي وصخري ومستقيم ومتعرّج فكان شيئا يسلب العين طوال الطريق.

وقفنا عند نقطة شرطة للتفتيش الروتيني ومعرفة وجهتنا في هذه المنطقة المتطرِّفة من سيناء الغالية، حيث تبادل فريد وأحد ضباط المكان التحية بعد أن اطَّلع على رخص السيارة وبطاقتي.

ما أن تركنا هذه النقطة بقليل حتى لاحت على اليمين أمامنا جزيرة بها قلعة قديمة سُمّيت جزيرة فرعون، التي أقيم على الشاطئ المقابل لها من ناحية مصر فندق بشكل شاليهات أُطلق عليه فندق قلعة صلاح الدين، وقد بُني من الحجر وسيطر عليه الطابع البدائي البسيط.

ومررنا بعد ذلك بفندق تحت الإنشاء على اليسار في الناحية الداخلية من الأسلفت، علمت من فريد أنه لأحد أصدقائه.

وقبل أن نصل إلى فندقنا الذي لاح أمامنا مثل الصورة المميزة التي كانت دائما تُنشر له، توقَّفنا ليحكي لي فريد عن خط زيدان الحدودي.

ذلك أنه حين تسلَّمنا الحدود الشرقية من إسرائيل إثر تسوية كامب ديفيد، قام الإسرائيليون بتسليمنا المنطقة حتى هذا المكان الذي نقف عنده، متعللين بأن الفندق لا يقع في الأراضي المصرية، ولم يكن هناك حل في هذا الوقت إلا القبول بالأمر، ثم اللجوء إلى التحكيم الدولي، الذي استعدنا من خلاله آخر شبر من مصر كانت إسرائيل قد بسطت نفوذها عليه إثر حرب الأيام الستة في ٦٧.

عند هذا المكان ضُرِب سور من الأسلاك الشائكة ليفصل بين البلدين، حتى يفصل القضاء الدولي في الدعوى المرفوعة من مصر لاسترداد طابا، وأخذ الأراضي بما فيها الفندق الذي كانت تديره شركة سونستا لإدارة الفنادق. ثم عُيّن أحد الضباط برتبة عقيد للإشراف على هذه المنطقة الحدودية يُدعى محمود زيدان، وقد كانت المنطقة شمال هذا الخط مباشرة والتي تُعتبر من شواطئ الفندق، وأطلق عليها منطقة نيلسون وكانت مكانا العراة وقتئذٍ، وقد أقيم تمثال عارٍ في هذا المكان لم نستطع إلا ستر أعضائه بملاءة، حيث إن أحد بنود اتفاقية السلام تضمَّن بقاء المنطقة كما هي.

كان الجنود المصريون على مرمى حجر من هؤلاء اللائي تخلَّين عن أي شيء يستر أي شيء من أجسادهن، وكنَّ عاريات كما ولدتهنَّ أمهاتهنَّ، هنا قرَّر السيد زيدان إقامة منطقة عازلة، حيث ضرب سياجا يفصله عن الخط الأول بحوالي خمسين مترا إلى الداخل حتى تكون فاصلة بين الأجساد العارية والأعين المترقِّبة الجائعة، وإذا بالفندق يتقدَّم جنوبا لاحتلال هذه الأمتار الخمسين بالشيزلونجات والشماسي والأدوات وما إلى ذلك، فيستعين زيدان بعمال المقاولين العرب الذين كانوا يُنشئون محطة تحلية مياه بجوار المكان لإعادة الشيء إلى أصله ليلا، والرجوع إلى السلك الأول دون منطقة عازلة، مع إزاحة الكراسي والشماسي والشيزلونجات شمالا إلى المنطقة الأولى. وإذا بإسرائيل تصوِّر العمال والقائد وتشتكي في الجمعية العامة للأمم المتحدة بأن اعتداء مصريا قد وقع على حدودها الجنوبية. وانتهى الأمر إلى عودة القوات المصرية إلى الخط الجنوبي تاركين النقطة الأولى، لتكسب إسرائيل مؤقتا هذه الأمتار الخمسين من الأرض، وتبقى حدود مصر هي عند خط زيدان حتى صدور التحكيم واستعادة الأرض وعليها الفندق حتى الحدود الشرقية المعروفة والموجودة في كل الخرائط والمستندات.

انتهينا إلى جناح فاخر في الدور العاشر والأخير بالفندق الفخم الجميل الذي آلت إدارته إلى مجموعة هيلتون.

كانت الحرارة شديدة، ولكن الخروج إلى شرفة الفندق كان لا يقاوَم، حيث كانت شواطئ السعودية التي صاحبتنا على الجانب الآخر من البحر يمين السيارة منذ أن تركنا نويبع تنتهي عند ميناء العقبة الأردني، الذي يفصله عنا ميناء إيلات الإسرائيلي. في الناحية اليسرى من الفندق كان العلمان (علم مصر وعلم إسرائيل) يقفان في تحدٍّ واضح، لا يفصلهما عن بعضهما سوى بضعة أمتار.

قضينا عصر هذا اليوم عند حمام السباحة بين التمتُّع بمياه البحر بالحمام الآتية مباشرة من البحر، وبين الاستغراق في الاستجمام حوله، حتى ودَّعت الشمس المنطقة وصار الجو أفضل بكثير. كنا على موعد في المساء مع صادق وزوجته اللذين يمتلكان الفندق القريب تحت الإنشاء، وقد أسمياه "طوبيا" وهو الاسم القديم لمنطقة طابا.

وفي التاسعة تماما كنا ننتظر الضيوف في أحد مطاعم الفندق وهو في غاية الشياكة والخصوصية، يسمى كازا طابا، كانت الأواني والأدوات في غاية الأناقة وهي كثيرة؛ فهذا الكوب للويسكي أما هذا الكأس مضموم الحافة فللكونياك، والآخر المفتوح للشمابانيا، بالإضافة لأكواب أخرى للبيرة والماء، وكؤوس النبيذ التي صرت أعرفها جيدا. أما الفضِّيات الأنيقة فكانت أيضا كثيرة، فهناك ملاعق للحساء وأخرى صغيرة أو أشواك للسمك وأخرى للحوم، وكذلك السكاكين المشرشرة للحوم المشوية، والعريضة ذات المقدمة المدببة للأسماك، والعادية المستقيمة لباقي الأطعمة.

أضيئت الشموع على المائدة فور وصولنا، لم يكن بالمطعم إلا مائدة أخرى مشغولة، قد جلس إليها اثنان من الإنجليز في منتصف العمر، في شكل كلاسيكي خابرته عندما عشت أخيرا في بلادهم. لم يتأخَّر ضيفانا علينا، فقد حضرا في أناقة مميزة يلبسان ألوانا فاتحة فيها هندام لا تُخطئه العين، وكان حديثهما أكثر أناقة ومتعة، كنت أتدخَّل قليلا في الحديث أو أردُّ عندما يوجِّه لي الحديث.

كانت الأطباق تنزل إلينا في بطء وأناقة مبالغ فيها، فقد قضينا حوالي ساعتين في هذا العشاء الرومانسي الأنيق. كان معظم الحديث عن السياحة ومستقبل المنطقة، وما إذا كانت هذه المنطقة التي أطلق عليها ريفيرا البحر الأحمر هي الحصان الرابح في السياحة في السنوات القادمة، يدعم ذلك أن اتفاقية السلام تسمح لرعايا دولة إسرائيل بالتحرُّك جنوبا من حدودها عند طابا إلى منطقة شرم الشيخ دون الحاجة إلى تأشيرات أو إجراءات، وخصوصا أن مستوى الدخل في هذه الدولة ذات الأربعة ملايين مواطن بالإضافة إلى عرب ٤٨ (وهم العرب من سكان المناطق التي أعلنت أنها أصبحت داخل دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨ وهم يحملون الجنسية الإسرائيلية) يعتبر عاليا، وأن السياحة إلى هذه المنطقة محببة إليهم حيث يصطحبون سياراتهم، وأن الأسعار رخيصة جدا إذا ما قورنت بأسعار الإقامة في فنادق إسرائيل الساحلية.

صعدنا إلى جناحنا في الطابق العاشر بعد وداع ضيفينا عند باب الفندق، ما كدت أخرج إلى شرفتنا حتى رأيت مزيجا من الأضواء التي خلقها الإنسان تحاول منافسة ما خلقه الله من ضوء القمر المنبعث على صفحة الماء الهادئة في نهاية الخليج، ولكن هيهات.

كانت سفن مزدانة بأضواء ذات ألوان فاقعة تظهر أمامنا في مياه الخليج، علمت أنها كازينوهات للقمار يأتي إليها رعايا إسرائيل، وكذلك إلى الكازينو المقام في الفندق الذي نقطنه، وقد أضيئت لافتة في مواجهة حدود إسرائيل حيث ترى جيدا للداخل إلى مصر من أبناء العم. فالقانون في دولة إسرائيل يمنع نوادي القمار هذه أن تقوم على أراضيها، فكانت هذه السفن هي البديل، وكذلك كثيرا ما كانوا يحضرون للعب في الكازينو بالفندق ثم يعودون إلى بلادهم.

استيقظنا صباح اليوم التالي بعد أن داعبت أشعة الشمس جسدينا العاريين، فقد كان القمر شاهدا على ليلة اختلط فيها الحب والحقيقة والخيال.

استكملنا نومنا بالداخل حيث حرارة الجو أصبحت شديدة بعد الشروق. شاركتنا طيور المنطقة من عصافير وغيرها إفطارا فخما في المطعم الرئيسي للفندق بالدور أسفل الأرضي، حيث كان أبناء أولاد العم هم غالبية الرواد، وكذلك بعضا من عرب ٤٨.

لبسنا ملابس البحر واتجهنا جنوبا إلى منطقة نيلسون التي تقع على بعد أمتار من مبنى الفندق الرئيسي، وعلى الشاطئ الرملي هناك كان الرواد الموجودون قد أخذت كل مجموعة مكانها تحت شمسية للاستمتاع بهذا الجزء الجميل من البحر نهاية الخليج. بصعوبة وجدنا مكانا لنا كان أصحابه الذين يبدو أنهم كانوا مبكرين في النزول إلى البحر فقد عادوا إلى شاليه من مجموعة شاليهات تابعة للفندق التي تقع خلف ممشى يربط مبنى الفندق الرئيسي بهذه الشاليهات مباشرة حتى نهاية حد الفندق، بالقرب من مكان خط زيدان الحدودي. كان يومنا هادئا، ورحت أسبح في أفكاري، فإن علينا غدا أن نرحل وكأننا آدم وحواء يخرجان من الجنة.

عادت الأفكار تقتحم عليَّ صمتي، ورحت أسأل فريد:

- فريد بتحبني؟
- إنتي شايفة إيه؟
- لأ بجد.
- بحبك.
- طب لو يوم سافرت أشتغل بره هتعمل إيه؟
- كل شيء نصيب.
- يعني مش هتجيلي؟
- أجيلك فين؟

رحت أشرح له أنني أرغب في أن أصبح مثل الناس الذين نقابلهم، أعتمد على نفسي في كسب قوتي وأربِّي نجلي من عملي، وأنني دائمة التخيُّل لنشأة لولدي تختلف كلية عن نشأتي، وهذا ما نجحت فيه بالكاد إلى الآن، أما مستقبله فهو محلُّ توجسي وخوفي، وزدت على ذلك أن مرتبي الآن وغدا ومعاش المرحوم لا يمكن أن يربِّي ولدي بالشكل الذي أتمناه، وأنني لا أرى بارقة أمل في أن تتحسَّن الظروف أكثر من ذلك، وأنني شاكرة له كل مساهماته في حياتنا، التي تغيَّرت تماما بعد ظهوره فيها.

استغرق فريد مفكِّرا في أمري، كأنني ألقيت عليه عبئا جديدا، ولم أكن أحب أن أكون مصدر للقلق أو الحيرة لهذا الرجل الرائع.

- وفاء إنتي قلتي إنك عايزة تسافري؟
- آه أنا شايفة إن مافيش أمل هنا مع ضآلة المرتبات وطول فترة التحضير للدراسات العليا.
- روحي رتِّبي للدراسات وأنا هاتحمل كل التكاليف.

- الموضوع مش بس وقت وتكاليف، لكن أنا حاسة إنني مش هاقدر أدخل موضوع أخرج منه بعد ١٠ سنوات.

- لو بتفكري في عمل في الدول العربية فموقفك هناك هيكون صعب.

- إزاي؟

- أرملة شابة وجميلة.

- إيه الحل؟

- روحي أوروبا أو أمريكا بشكل هجرة، وابدئي حياتك انتي وابنك، وبكده تكوني قدّمتي لابنك أحسن شيء، وهو أن يُزرع في المجتمع الغربي، وكمان يكون عبء تربيته وتعليمه أقلّ كتير من مصر.

راح فريد متحمسا للفكرة؛ حيث أخبرني أن طبيعة الناس هناك تفرض العمل، والشباب هناك يبدأ العمل عند سن ١٨ وأن هذه الشعوب لا تتعرّض للشئون الخاصة للناس؛ فكل إنسان يعمل في الصباح ليعود بعد العمل إلى حياته الخاصة التي لا يقتحمها أحد.

تناولنا طعام العشاء في نفس مطعم الإفطار، كان العشاء متميزا في الأصناف وجودة الطهي، جلسنا بعد العشاء في بهو الفندق، وكنا نتأمل نافورة وسط السلم الذي ينزل من البهو إلى المطعم، حيث يوجد بها عدد من الأطباق النحاسية الموضوعة بشكل وترتيب معين، تنزل عليها نقاط الماء لتعزف سيمفونية رائعة يستمتع بها روّاد الفندق.

حضرت إلى الفندق فرقتان إحداهما تقوم برقصة التنورة المصرية الشهيرة، والأخرى شومن فتيات روسيا الجميلات اللاتي قمن بعدد من الرقصات منها الرقص الشرقي التقليدي.

- تعرفي ترقصي كده؟

- نعم يا خويا.. طب يلا على فوق وأنا أورّيك.

لم أكن قد رقصت منذ زفاف إحدى جارات جدَّتي في الوراق، كان عمري وقتها أربعة عشر عاما، لكن طولي الفارع وجسدي الفاير يعطي عمرا آخر فوق هذا السن، وقد استحسن الجميع رقصي حتى نهرتني أمي وسحبتني بعيدا. لكن هذه المرة كان عليَّ تحدِّي بنات روسيا حتى لا تزوغ عينا حبيبي عليهن.

اشترى لي فريد بدلة رقص وسط ضحكاتنا من بوتيك الفندق، وصعدنا إلى جناحنا وأنا في تحدٍّ حقيقي، وما أن بدات التراقص على أغنية إنت عمري لأم كلثوم حتى رأيت استحسانا ظاهرا في عيني فريد، الذي كان يصفِّق لي بعد أن فكَّ دبابيس شعري ليسقط غزيرا بين كتفي وخصري النحيل، الذي كانت يدا فريد تحتضنه، بينما كنت أتفنَّن في رقصات أعادت لي أياما مضت اعتقدت فيها أن سنِّي أصبح أكبر مما هو عليه كثيرا.

أويت إلى حضن حبيبي بعد أن خلع عني بدلة الرقص، ورحنا في سُبات حتى الصباح.

خرجنا من الفندق متَّجهين إلى القاهرة، توجد المنطقة الحدودية إلى اليمين قبل أن ننحرف يسارا نحو الطريق، يطلق عليه "منفذ طابا البرّي" كما هو مكتوب، وقد علمت أن فريد وكثيرا من المصريين قد عبروا هذا المنفذ إلى ميناء إيلات الإسرائيلي، حيث يمنح العابر المصري تأشيرة عبارة عن وثيقة خارج جواز سفره، وهي تؤهِّله للتجوُّل داخل إسرائيل حتى منطقة بير زيت طبقا للاتفاقية كامب ديفيد، وأن السيارات الجيب ذات الدفع الرباعي مثل السيارة التي صحبتنا رحلتنا هذه ممنوعة من الدخول لإسرائيل من مصر.

كان مبنى المنفذ هذا بسيطا وصغيرا، وتظهر من خلفه البوابة المصرية وكذلك الإسرائيلية على بعد عدة خطوات. انحرفنا يسارا لنتوقَّف عند

نقطة تفتيش على بُعد أمتار من الفندق للتأكد من جنسيتنا وأوراقنا للسماح لنا بالمرور، وبعد كيلومترين تقريبا كان وقوفنا لدى صادق صديق فريد حيث تناولنا قدحين من القهوة الأمريكية، وتبادلنا الشكر على زيارتهم لنا وأكملنا طريقنا.

ودَّعنا صفحة البحر بعد أن أصبح خلفنا بانحرافنا يمينا لنصبح بين جبلين شاهقين متعددي الألوان والأشكال، كان الطريق ضيقا متعرِّجا مختلف المستويات، أخبرني فريد أن هذا الطريق بين الجبلين يتعرَّض للسيل عندما تسقط الأمطار في المنطقة، وكثيرا ما يكون هذا السيل مدمِّرا لكل ما في طريقه، حتى إن السيل قد جرف أحد الأتوبيسات الكبيرة في كارثة معروفة في العام الماضي. بين تعرُّجات الطريق ثم استقامته لنصبح في صحراء واسعة مترامية الأطراف كان طريقنا إلى القاهرة، حيث إن المسافة من طابا إلى القاهرة تبلغ أربعمائة كيلومتر، نشقُّ خلالها سيناء من الوسط حتى مدينة نخل، ثم نستكمل طريقنا إلى نفق الشهيد أحمد حمدي.

فسيناء بها ثلاثة طرق رئيسية: الأول إلى الشمال ينتهي إلى العريش ثم رفح الحدودية، والقاصد لهذا الطريق إما ينحرف يسارا بعد النفق أو يكون قد عبر قناة السويس من شمال النفق ناحية الإسماعيلية. أما المحور الذي نسير عليه الآن فهو محور الوسط، وهو يمر وسط صحراء سيناء، ويمثل وترا لمثلث ضلعاه خليج السويس والآخر خليج العقبة. أما المحور الجنوبي فكان طريقنا الذي سلكناه إلى شرم الشيخ بموازاة خليج السويس جنوبا حتى محمية رأس محمد، ثم قليلا إلى الشمال على خليج العقبة إلى شرم الشيخ.

توقَّفنا في مدينة نخل البدائية في استراحة فقيرة تزوَّدنا بالبنزين وشربنا المشروبات الباردة، واستأنفنا رحلتنا إلى القاهرة.

كانت أفكار الهجرة للغرب، وتطلُّعي إلى أن أضمَّ ولدي بعد غياب لأيام، هما المسيطران عليَّ طوال طريق العودة، وكانت أسئلتي كثيرة حول هذه المجتمعات وأي بلاد الغرب أفضل لأقوم بهذه المغامرة.

لماذا مغامرة؟ وماذا لي في مصر؟ وماذا سوف أترك؟ وأن الرازق هو الله ربُّ مصر وربُّ غيرها، ورحت أجمع المعلومات، فلم أكن خابرت السفر للخارج من قبل، لم أتجاوز حدود مصر برا أو جوا قط، ومرَّت شهور ستة وأنا أميل نحو الفكرة تارة وتذهب عني قليلا تارة أخرى. صرت ألحُّ على فريد أن يصحبني إلى الخارج في إحدى سفراته الكثيرة حتى وافق، على أنني كنت أعلم أن الحصول على تأشيرات لدخول بلاد الغرب صعبة جدا للفقراء أمثالي، ولكنه سهَّل الأمر بمجموعة أوراق استصدرها من شركته، بالإضافة إلى مجموعة أخرى من المستندات أدَّت في النهاية إلى إنجاز الأمر.

كانت رحلته إلى باريس لمدة ثلاث ليالٍ؛ لإجراء مقابلات وإنهاء بعض الأعمال هناك، ثم الاستراحة ليومين في مصيف دوفيل، ويعبر المانش بعد ذلك متَّجها إلى لندن؛ حيث لديه بعض الأعمال في إقليم ويلز. كانت هذه الرحلة لي كرحلة فاسكودي جما أو كريستوف كولمبس مكتشفي الطرق الجديدة، فرحت أعدُّ نفسي جيدا من أجلها، فعدت إلى أطلس كنت قد وجدته بين أوارق وكتب زوجي المرحوم، لم تكن التفاصيل في الأطلس كثيرة، فقد كُتب عليه الأطلس العربي، وقد عني بتفاصيل الدول العربية، رغم أنني عندما عدت إلى خريطة سيناء بالصفحة التاسعة عشرة في الأطلس، لم أجد ذكرا لمدينة شرم الشيخ فقد كانت نقطة نبق هي أقرب ما ذُكِر عنها، أما موقع طابا فقد أشير إليه بـ"بئر تابة" في هذا الأطلس القديم، حيث تمَّت طباعته عام ١٩٦٩ وقد كُتب عليه أنه رسم وطبع بإدارة المساحة العسكرية بالقاهرة. لكن موقعي لندن وباريس لم يزيدا على علمي شيئا، أما مدينة

كاردف عاصمة إقليم ويلز فتقع غرب لندن لتطل على المحيط الأطلنطي الذي أحاط الجزر البريطانية بمياهه.

استخرجت جواز السفر، وحصلت على تأشيرة فرنسا وإنجلترا بعد أن سلَّمني فريد المستندات اللازمة، ورتَّب أن يكون سفرنا يوم ١١ يوليو؛ حيث إن لديه أعمالا في اليومين التاليين، ونقضي يوم ١٤ في باريس وهو العيد القومي لفرنسا، ثم نسافر إلى دوفيل صباح اليوم التالي ١٥، وأوصاني بعدم اصطحاب الكثير من الملابس حيث إن الأوكازيونات تقام في هذه الأيام، ويمكننا شراء ما يعنُّ لنا بأسعار جيدة.

ذهبت ليلة السفر بعُمَر إلى خالتي كالعادة، وتركت لها لوازمه من ملابس، وقد ملأت لها ثلاجتها مما يلزمها هي وأسرتها ونجلي حتى أعود. لم أشعر بالذنب تجاه ولدي الذي تركته في بيئة تقلُّ عما أريد أن أعوِّده عليه، فهو ما زال صغيرا دون الرابعة، لا يدرك، وأنني أتركه من أجل أن أبحث عن مستقبل أفضل له.

جهَّزت بعض الساندوتشات والعصائر حيث علمت أن الطيران إلى باريس حوالي أربع ساعات ونصف الساعة، وأنه علينا أن نحضر إلى المطار قبل موعد الإقلاع بساعتين على الأقل.

باريس

نزلت إلى فريد حيث وصلنا إلى المطار، تركنا سائقه بعد أن وضع حقائبنا على إحدى العربات المخصصة لذلك. توجَّهنا إلى علامة الخطوط الجوية الفرنسية Air France، سلَّمنا حقيبتينا واتجهنا إلى الجوازات حيث ختم الضابط جوازَي سفرنا، وجدت المطار من الداخل عالما آخر من البوتيكات الفاخرة وفاترينات العرض الرائعة التي تبيع كل شيء بالدولار، بداية من الشوكولاتة والعطور والساعات والنظارات حتى المشروبات الكحولية والأقلام غالية الثمن، كما توجد الكثير من الكافتيريات التي قصدنا إحداها.

- تحبِّي تفطري إيه؟
- الفطار معايا يا عمري وكمان الغدا، لسه بدري على ما نوصل.
- بس إحنا هنتغدَّى في الطيارة.

لم أكن أعلم أن الطائرة تقدِّم طعاما لضيوفها فإن هذا العالم كان يوجد فقط في أحلامي وآمالي. اتَّجهنا إلى صالة تؤدي إلى الطائرة بعد أن تناولنا القهوة وبعضا من الساندوتشات التي كنت قد أعددتها.

عند النداء على الطائرة عبر السماعات في سقف صالة الانتظار توجَّهنا عبر ممر ضيق انتهى بابتسامات جميلات فرنسيات هنَّ المضيفات اللاتي يصحبن الرحلة إلى مدينة النور باريس.

كل شيء داخل الطائرة أنيق ومرتَّب ونظيف جدا، وجوه المضيفات مبتسمة تشعر أن كلا منهنَّ تعمل وهي سعيدة، عندما تستدعي إحداهن لأي سبب تحضر سريعا وتنظر في عينيك وهي مبتسمة، وتتفنَّن في إرضائك وكأنك الراكب الوحيد على هذه الطائرة العملاقة ذات الطابقين jumbo boing 747 كما علمت من النداء وكتيب وُضِع في جيب المقعد الذي أمامي.

عندما أغلق الباب ونودي بربط الحزام ساعدني حبيبي، زمجرت محركات الطائرة مغادرة أرض مصر إلى آفاق جديدة كان عليَّ أن أتعامل معها، ثم أن أصبح جزءا منها فيما بعد. كان حبِّي للسفر وتعلُّقي بكل أدواته حتى في صغري، وانبهاري بكل آتٍ من الخارج بما فيها طوابع البريد التي كنت أراها لدى مخدوميَّ، ولم أكن في هذه الأيام أتصوَّر أن تحقيق حلم السفر ممكنا.

وها أنا أخيرا بين السماء والأرض محقِّقة رغبة طالما ألحَّت عليَّ وحاصرتني في أحلامي. حلَّقنا حوالي أربع ساعات، تناولنا خلالها وجبة الغداء التي وُزِّعت علينا، وقد كُتب باللغة العربية والإنجليزية والفرنسية عليها أن هذا الطعام خالٍ من لحم الخنزير، كنا نتناول المشروبات المختلفة بين الحين والآخر، كما تمَّ عرض فيلم كوميدي استغرق كثيرا من زمن الرحلة.

هبطنا في مطار شارل ديجول العملاق شمال باريس، لم أعلم كم كان مطار القاهرة صغيرا إلا بعد الهبوط في هذا المطار العملاق، كانت أعداد الطائرات كبيرة جدا على أرض المطار، والمسافة التي قطعناها من المهبط إلى مكان الانتظار كانت تمرُّ بين طائرات كثيرة تستعدُّ للإقلاع وأخرى تفرغ أو تمتلئ بالركاب والبضائع.

التقطنا حقيبتينا من على سير دوَّار بعد أن خُتم جوازا سفرنا من سلطة المطار. ما أن خرجت إلى الشارع حتى شعرت بأنني في مكان مختلف تماما، شكل السيارات التي يغلُب عليها الطابع الفرنسي، معظمها ذات بابين فقط ودون الشنطة التقليدية، الحركة سريعة جدا، الجوُّ نظيف وله رائحة تشبه رائحة ريف الوراق في الصباح الباكر.

أخبرني فريد أن موعد تحرُّك الأتوبيس بعد ٦ دقائق، يصل الأتوبيس مكتوبا عليه شارل ديجول أتوال Cherles de Gaule l'étoile وهي المحطة التي

نتوجَّه إليها. كان السائق نظيفا ونشيطا، كان يقطع التذاكر ويضع الحقائب في مخزن الأتوبيس، ويساعد الركاب على الجلوس في أماكنهم ووضع متعلقاتهم وكأنه صاحب الأتوبيس، وليس سائقا لدى شركة إيرفرانس صاحبة الأتوبيس.

كان الأتوبيس يشقُّ طريقه بسرعة كبيرة، ويسير في خط مستقيم على الجانب الأيمن، وقد خُصِّص طريق للأتوبيسات في بعض الشوارع، وها هي باريس تطلُّ علينا ببرجها الشامخ ومباني لاديفانس La Défence وبورت مايو Port Maillo العالية ذات التصميم الحديث كما وصف لي فريد. استغرقت الرحلة من المطار وحتى ميدان أتوال الذي فيه قوس النصر حوالي ساعة، حتى نزلنا وعبرنا بحقيبتينا شارعين لنصل إلى فندق صغير وأنيق على ناصية شارع مكماهون نسبة إلى الرئيس الأمريكي الأسبق.

وبعد تحية سريعة أخبرتنا موظفة الاستقبال رائعة الجمال ذات العشرين عاما من العمر تقريبا أن غرفتنا سوف تجهّز بعد ساعتين طبقا لما هو وارد في شروط الحجز، تركنا الحقائب لديها في مخزن أعدَّ من أجل ذلك.

خرجنا إلى مترو الأنفاق حيث ركبنا مصعدا إلى المحطة من أمام الفندق، اشترى فريد عشر تذاكر حيث إنها تكون مخفَّضة عند شراء التذاكر العشرة وتطلب من الشباك باسم كارنيه Carneh، وقد استغربت عندما وجدت قطار الأنفاق Metro يتحرك على عجلات كاوتشوك مثل السيارات.

نزلنا في محطة ميدان الدفاع La Défence أخبرني فريد أن أمامنا ثلاث ساعات للمشتريات فقط في هذه الرحلة كلها. دخلنا المول التجاري، وعلمت أننا نجد متاعنا في محلين فقط أحدهما C & A، والآخر باتا بجواره، وأن كلا منا يجب أن يلتقي الآخر كل ساعة أمام الباب الرئيسي للمحلين.

- ماتنسيش تجيبي مايوه.

- حاضر يا عمري.

- بيكيني فرنش كت عشان نورّيهم الإمكانيات.

- حاضر يا عمري.

- وحاجة لراسك عشان الشمس.

- حاضر.

لم أجد أي وجه شبه بين باتا هذا وباتا المعادي الذي يقع في شارع الحرية، فهذا نظيف ومملوء بالبضائع المميزة والبائعات يملؤهنَّ النشاط والحيوية والصبر على حماقات الزبائن، والآخر يغطّي رفوفه التراب وتعرض البضائع قليلة الجودة بشكل منفر، أما البائعون فالنعاس يغلب عليهم، ويوجد أحيانا الفول وبقايا طعام الإفطار فوق مكتب الكاشير، والرغبة في طرد كل من يخونه الحظ ويدخل إليهم.. تسيطر على تصرفاتهم العدوانية تجاه الزبائن المساكين!

كانت لافتات الخصم تغطي المكان في كل الاتجاهات، كانت الخصومات تصل إلى ٧٠% وكانت ألوان العلامات على البضائع تميز تلك التي عليها ٥٠% أو ٣٠% أو ٧٠% حتى يتسنى للعميل معرفة الثمن النهائي وسرعة الشراء، كان العاملون يساعدونني رغم أنني أتحدَّث بالإنجليزية وبعضهم كان من أبناء الجزائر والمغرب، ولكن الإنجليزية كانت أسهل من لغتهم العربية.

عدنا إلى الفندق بعد أن قطع بنا القطار السريع R E R محطة واحدة إلى هناك، وقد كنا نحمل في كلتا أيدينا ما استطعنا شراءه وحمله. استقبلتنا فتاة الاستقبال بالفندق بابتسامة رائعة، وبإنجليزية يغلب عليها اللكنة الفرنسية أخبرتنا أن الغرفة في الطابق الرابع جاهزة لاستقبالنا.

كان الفندق مبنى قديما ذا أسقف عالية وزخارف حول محيط مبناه وبلكونات صغيرة ذات حديد مشغول، كانت في ردهة الاستقبال توجد مدفأة وكأنها قطعة من التاريخ والفنّ معا، أما الحوائط فقد ازدانت بصور قديمة داخل براويز مذهّبة دقيقة التفاصيل، الستائر من اللون النبيتي الداكن الذي أعطى المكان كثيرا من الأبّهة والوقار، كانت تتدلّى في وسط القاعة ثريا (نجفة) من البرونز، قد أخبرتنا موظفة الاستقبال عندما رأتنا نتأمّلها معجبين بجمال ودقة تفاصيل تماثيلها أنها من القرن الثامن عشر، وأنها كانت تعمل بالزيت قبل الكهرباء.

صعدنا في مصعد من الزجاج والنحاس الأصفر اللامع، وكان حول بير المصعد سلم رخامي من رخام الكرارة الإيطالي شديد البياض واللمعان يتوسّطه بساط أحمر، وقد استخدمت محابس من النحاس لحبس أطراف البساط إلى السلم. كانت الغرفة كبيرة وأنيقة، والحمام أيضا الذي أغلقت شباكه حتى لا يرانا زوار قوس النصر Arc de Trimph المجاور لنا، وقد أحضر لنا عامل الحقائب حقائبنا.

أنزلنا تراب إفريقيا بدُشٍّ ساخن تعاقبنا عليه، ثم استغرقنا حوالي ثلاث ساعات في نوم عميق.

كان شارع الشانزليزيه Champs Élysées يُرى من شباك الغرفة، الساعة كانت تشير إلى الثامنة مساء بتوقيت باريس، ولكن النهار كان لا يزال يلقي نوره وكأنه يقول إن باريس مدينة النور هكذا نهارا وليلا، كذلك برج إيفل Tour Effel كان يبدو أمامنا عن قرب. نزلنا إلى الشانزليزيه Champs Élysées، لم تكن الشمس غرُبت بعد حتى التاسعة، راح دليلي يشرح لي؛ فهذا المقهى يسمَّى الفوكت ذو الستائر والتند الحمراء، وهو أشهر مقاهي

باريس، ولا يُسمح لأي سيدة بالجلوس وحدها طبقا لسياسة خاصة تتبعها إدارته تجاه روّاده.

كان الشارع عريضا يسمح بسير أربع سيارات بكل اتجاه، بالإضافة إلى حارة خاصة للانتظار السريع في كلا الجانبين، أما الرصيف فكان عريضا جدا، فهو عبارة عن مكانين للسير يتوسَّطهما مكان يُستخدم كمطعم أو كافتيريا في بعض الأجزاء من الشارع، وقد زُرِعت الأشجار في أحواض مستديرة يحدُّها حديد مشغول بنظام وأناقة ودقة على الجانبين، وُزِّعت المتاريس المعدنية بالشارع تمهيدا لتركيبها على الجانبين يوم الاحتفال بالعيد القومي.

يبدأ الشارع من ناحية قوس النصر Arc de trimph وينتهي في ميدان الكونكورد Place de la Concord الذي تتوسَّط نافوراته المسلَّة المصرية، وكأنها شاهد من أعماق التاريخ يحدِّث العالم عن أول حضارة عرفها الإنسان على أرض النيل، فيتضاءل أمامها كل ما حولها من تماثيل وزخارف طُليت بعضها بماء الذهب، فكأنك لا ترى إلا هذه المسلة فقط داخل قلب الميدان.

المباني من حولنا ذات طراز واحد يميِّزه الأبواب الخشبية الكبيرة ذات النقوش الدقيقة، وكذلك الأبواب الحديدية سوداء اللون دقيقة التفاصيل، ارتفاع العمارات واحد وقد انتهت إلى أسطح مائلة ذات أرميد أسود يؤكِّد أن هذا البناء قد انتهى، وأنه لا فرصة أخرى لإضافة أدوار جديدة كما يحدث عندنا، فإن معظم المباني عندنا تنتهي عند الأسطح بمجموعة من الأعمدة يظهر منها حديد التسليح؛ أملا في إضافة دور أو أدوار أخرى عند غفلة مهندسي الأحياء، أو عند الاتفاق على رشوة مناسبة تغمض أعينهم عما يفعله صاحب المبنى!

المحالُ أنيقة، وكذلك الناس في الشارع تنبعث منهم عطور مختلفة، وإن كانت كلها جميلة. المقاهي على الصفين تمتلئ بالناس، وقد كان المصريون وأبناء الجزيرة العربية يتجوَّلون بكثرة في هذا الشارع، وكذلك ينتشرون على المقاهي والمطاعم.

وبعد ساعة من التسكُّع بين مقهى الفوكت أول الشارع يمينا، ومقهى المدريجال في نهاية الشارع إلى اليسار، عدنا للعشاء في محل بلجيكي متخصِّص في طعام البحر يقع في وسط الشانزليزيه Champs Élysées.

جهَّز لنا النادل التونسي طاولة، كان بجوارنا أسرة مصرية، وأخرى من لبنان، وقد أحضر لنا طبقا من ثلاثة أدوار مملوء بمحارات وصدفات مختلفة، ووضع مجموعة من الأدوات أمام كل منا تشبه أدوات النجَّار تماما، كما أنزل لنا زجاجة من النبيذ الأبيض المصنوع في المحلِّ ذاته، وملأ لنا الكؤوس بعد أن استطعمه فريد.

أضيئت مصابيح الشارع مع غروب الشمس، وظلَّ الشارع نشطا صاخبا وكأن النهار قد امتدَّ إلى منتصف الليل. وبعد معركة مع المحار وحيوانات البحر اللذيذة المختلفة استخدمنا فيها كل الأسلحة التي زوَّدنا بها النادل التونسي، فإذا به يقدِّم إلينا الطبق الرئيسي وهو عبارة عن قطعة سمك السلمون وقد طهيت مع الأعشاب الخضراء، وكان الطبق كسابقه من أشهى ما يمكن.

بينما نحن نستعدُّ لمغادرة المكان حتى صار شجار بين عائلة خليجية كانت ترغب في الجلوس، والنادل التونسي، فإذا بفريد يتدخَّل لينهي الموقف ونغني وجيراننا أغنية وطني حبيبي، وننصرف. وفي محلِّ الآيس كريم الأشهر هايجن دز Haagen Daz بجوار المطعم كانت مجموعة من الممثلين المصريين

يقفون في الطابور لتناول الآيس كريم، وقد كان رائعا متعدد الأصناف والإضافات.

في طريق عودتنا أخبرني فريد بأن عليَّ أن أقضي اليومين القادمين وحدي، وقبل أن يظهر انزعاجي وذعري أخبرني بأنني أحضر غدا إلى هذا المكان، حيث أستقلُّ أتوبيسا ذا دورين يسمَّى السيارة الحمراء Car rouge يطوف بروَّاده معالم المدينة الرائعة، ويتوقَّف عند المعالم جميعها لأستقلَّ آخر بعد أن أقضي وقتا مناسبا عند كل معلم.

كان فريد يستعدُّ للخروج لقضاء عمله في السابعة صباحا وقد استيقظت على حركته.

- صباح الخير يا عمري.
- إيه اللي مصحِّيكي دلوقتي؟
- نفطر سوا وتروح لشغلك.

نزلنا إلى بدروم الفندق حيث المطعم وقد كان صغير المساحة شديد الأناقة والترتيب، وكانت تعمل به فتاتان إحداهما من المغرب والأخرى من السنغال، وكانتا تلبسان زي الفندق وعليه المريلة التقليدية للخادمات. وكان البوفيه ممتلئا بكثير من خيرات الله، حيث بدأنا بكوب من عصير الأناناس الطازج، ثم بعض الشرائح من سمك السلمون المدخَّن والزبد، وقد وضعت على طاولتنا سلَّتان إحداهما بها مجموعة من المخبوزات التي تتميَّز بها فرنسا، والأخرى كان بها بعض أنواع المربَّى والجبن المغلَّف والعسل والشوكولاتة.

انتهينا من الإفطار المتنوّع الرائع بعد تناول ثمار فاكهة الكريز والبرقوق، صبَّت لي الفتاة المغربية الشاي، وكذلك كوبا من الكاكاو لفريد، الذي ودَّعني على أن يعود إليّ في السابعة مساء.

صعدت إلى غرفتي حيث استلقيت لمدة ساعة راحت الأفكار والذكريات والطموحات تتصارع حولي، فلم يكد يمر عليَّ يوم في هذه المدينة ذات الحركة السريعة، إلا أنني كنت في غاية الثبات والثقة بنفسي، فلم تكن حالتي ثقة بنفسي فقط، ولكنني كنت أثق بفريد الذي كان يتصرَّف ويتحرَّك كأنه في مصر تماما.

خرجت في العاشرة وقد كنت ألبس بنطالا من الجينز وتي شيرت قطن أبيض اللون، وقد انتعلت حذاءً رياضيا اشتريته من باتا أمس، وحميت رأسي من الشمس بقبَّعة أنيقة مع نظارة شمسية كبيرة الحجم حتى صار شكلي مختلفا وكأنني لست أنا.

على السيارة الحمراء Car rouge على بعد خطوات من الفندق قطعت تذكرة تصلح ليومين من السائق الجزائري الذي حيَّاني بتحية الإسلام، صعدت إلى الدور الأعلى من الأتوبيس وقد وضعت السماعة التي تسلَّمتها من السائق في أذني، وأوصلتها بمكانها المخصص لها بعد اختيار اللغة الإنجليزية لأستمع إلى شرح معالم المدينة الجميلة. استدرنا حول ميدان النجمة L'Étoile حيث يوجد قوس النصر Arct de Trimph وقد تفرَّعت من هذا الميدان شوارع كثيرة، فإذا رأيت هذا الميدان على الخريطة فإنه يشبه النجمة التي تنبعث منها الأضواء في شكل الشوارع الخارجة من هذا الميدان في كل الاتجاهات.

كان العلم الفرنسي بألوانه الثلاثة الأزرق والأبيض والأحمر يرتفع في كل مكان، وكان يوجد علم ضخم على فتحة قوس النصر Arc de Trimph بمناسبة العيد القومي.

تتميَّز باريس بشوارعها الواسعة ومبانيها محدودة الارتفاع، والتي غالبا تنتهي بالأسطح ذات السقف المائل من الأرميد الأسود، تطلُّ الأزهار من معظم شرفات المنازل، كما تتوزَّع الأشجار على جوانب الطرق، وقد تم تهذيب أوراقها لتصبح وكأنها ذات حجم وشكل واحد.

كما تتميَّز بالجسور على نهر السين La Seine ذات النقوش الدقيقة والتماثيل المذهَّبة، ولا يوجد في باريس كبارٍ علوية حيث الأنفاق تحلُّ مشكلة تشابك الطرق دون التأثير على الشكل الجميل للمدينة. توجد المقاهي بكثرة في شوارعها، وتناول الإفطار أو قدح من القهوة أو بعض من الطعام مع مشروب في راحة العمل منتصف النهار يعتبر جزءا من ثقافة أهل باريس، وكذلك فرنسا كلها، وتمتدُّ هذه العادة إلى بلجيكا التي تقع على الحدود الشمالية لفرنسا. لا ترى في المقاهي الكثيرة المنتشرة في شوارع باريس مقعدين متشابهين قط، فلكل مقهى طابع خاص، والمقعد يتم صناعته أو تصميمه من أجل هذا المكان دون تكرار.

كما يوجد نظام خاص لنظافة الشوارع، ذلك بتدفُّق المياه إلى جوار الأرصفة فتأخذ المياه المتحركة في اتجاه ميل الشارع أوراق الأشجار والشوائب الأخرى إلى البالوعات المصمَّمة من أجل ذلك، بهذا تتمُّ نظافة المدينة بطريقة بسيطة وسريعة في الأيام غير الممطرة، أما في الأيام الممطرة فإن المطر يقوم بغسيل الشوارع دون مشاكل أو كوارث كما يحدث عندنا. وإن كانت باريس مدينة النور مبهرة في عيون كل من يراها، وأنا أيضا، إلا أنني لم أشعر براحة

في المعيشة فيها؛ وذلك لسرعة رتم الحياة بها، وهكذا أكدت لي فطيمة وزميلاتها في قسم الماكياج بجالوري لا فاييت Gallerie Lafayette بعد ذلك.

نزلت من الأتوبيس عند مكان مرتفع يطلُّ على البرج العملاق حيث تلتقط الصور من هذا المكان، كنت أنزع غطاء رأسي وكذلك نظارتي لألتقط الصور لأؤكد لنفسي ولغيري عندما أعود إلى مصر أنني أنا.

نزلت السلم إلى الحديقة أسفل البرج، وسرت نحوه حتى أصبحت أسفله تماما حيث كان طابور طويل من راغبي الصعود، وقد وقفت بالصفِّ فيه حوالي نصف الساعة حتى حصلت على تذكرة لصعود الدور الأول، حيث يتكوَّن البرج من ثلاثة أدوار، وكل راغب في الصعود عليه اختيار الدور الذي يرغب أن ينتهي إليه. دخلنا المصعد البرتقالي اللون وكان يسير إلى أعلى مائلا بطيئا، حتى نزلنا إلى الدور الأول الذي اكتشفت أنه عالٍ جدا، وأن باريس تظهر جيدا من تحته، يوجد به تلسكوبات لرؤية الأماكن البعيدة من المدينة ككنيسة القلب المقدس Sacré Coeur التي تقع على أعلى تل يضمُّ بعضا من مباني باريس القديمة التي كانت للفقراء، وقد ظلَّت على حالها حتى الآن، كما يوجد على التلِّ خلف الكنيسة ميدان يسمَّى مون مارتر Place du Mon Martre يتخذه الرسامون المحترفون مكانا للرسم وبيع اللوحات سواء لمناظر طبيعية أو لمعالم باريس أو لوجوه بشرية بورتريه Portrait يحيط بهذا الميدان مقاهٍ صغيرة من كل الاتجاهات.

عند نزولي من البرج قابلت رجلا وسيدة في منتصف العمر، يبدو عليهما أنهما من ريف مصر، وقد صحبهما ابنهما الشاب الذي يسكن في مدينة منبلييه في الجنوب، حضر إلى باريس ليصحب والديه في جولة لأربعة أيام. علمت من الابن أثناء جولتنا الكثير عن فرنسا وعن الجالية المصرية، فقد حضر نجلهما الشاب إلى فرنسا للعمل في تجارة الفاكهة والخضراوات التي

يحتكر التجارة فيها في فرنسا أبناء قرية مصرية تقع بين محافظتي الدقهلية والغربية تُدعى "ميت بدر حلاوة"، وأن أبناء هذه القرية اعتادوا اصطحاب أجيال جديدة من أبناء القرية دائما، وأن معظمهم يعيش في رغد من العيش، وقد تزوَّج من ابنة قريته واصطحبها إلى هنا، أو تزوَّج من فرنسية وعاش هنا في مدن فرنسا المختلفة. أما المجموعة الثانية من المصريين فهي أقلُّ حظا في الثراء، وإن كانت المهنة التي يمتهنونها أكثر مجهودا، وهي مهنة طلاء وإصلاح وتجديد المباني، يوجد عدد لا بأس به من المصريين بلا أوراق رسمية يعملون في هذه المهنة.

كما يأتي إلى فرنسا في الصيف مجموعة من طلبة الجامعات يعملون غالبا في جمع العنب، يتم تجميعهم في تجمُّعات في الجنوب تتحرَّك شمالا في حقول العنب، حيث يرتفع بالون في كل قرية إعلانا بأن العنب يجنى في هذه القرية الآن. علمت أيضا أن الجالية المصرية جالية مشرِّفة، المسجَّل بها وغير المسجَّل والحاصل على إقامة رسمية وغير الحاصل، وأنه لا يوجد من بين المصريين من يعمل في التسوُّل أو الدعارة أو السرقة كأبناء بعض جنسيات أخرى موجودين هنا.

ركبنا الأتوبيس من الناحية الأخرى للبرج؛ فقد كان أقرب الينا، كنت أسأل سعيد (الشاب المصري) عن كل شيء عن المهاجرين المصريين وكيف أحوالهم، وما هي طرق ووسائل الاستقرار في مثل هذا البلد، خصوصا لمن مثلي، لكني لم أستفد منه كثيرا، وقد سيطر على كلامه غموض وزهو بالنفس، أعلم أن ذلك من سلوك أهل ريف مصر عندما يفتح الله عليهم، ومن أعجب ما قاله لي إنه عندما كان في بلدهم في مصر لم يكن يأكل اللحمة إلا عندما يطمئنُّ لرؤية العجل يُزفُّ قبل ذبحه (وهي عادة في بلاد الريف عندنا أن يتم تزيين الذبيحة، وأن تلفَّ أرجاء القرية مرددين "م

العين يالله السلامة من ده بكره"؛ حتى يطمئن الراغبون في الشراء اللحم من خلو الذبيحة من الأمراض، أما هنا فهو يطمئنُ ويحضر اللحم من أي محل فلا يوجد غش في أي شيء.

نزلت عند الأوبرا، وقد ودَّعت العائلة المصرية بعد أن قبَّلتني السيدة وأعطتني تليفون سعيد، وسألتني "لو محتاجة أي حاجة"، وشكرتهم وقد أخذت كارت سعيد، وانصرفت وهي تدعو لي بالستر والعودة سالمة لمصر.

كانت الأوبرا في باريس صورتها معروفة لديَّ جيدا، فقد كانت لدينا في المنزل صينية قهوة قديمة قد خلعتها علينا إحدى هوانم المعادي كان قد رُسِم بها صورة أوبرا باريس، كنت كثيرا ما أتأملها ولم يخطر في خيالي أنني قد أزورها وأجلس وألتقط الصور حولها أبدا.. كانت تماثيلها المذهبة تلمع في شمس الظهيرة في بهاء، لم تكن الصورة على الصينية في البساتين تكشف عن هذا الجمال البالغ أو عظمة البناء.

من الأوبرا درت حول كنيسة مريم المجدلية Marie Madeleine التي دافع عنها السيد المسيح بمقولته الشهيرة عندما همَّ أهل المدينة برجمها "من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"، فقد كانت الكنيسة تتوسَّط ميدانا يتجمَّع حوله السياح، وكان أكثرهم من الإيطاليين شديدي الصخب. كانت شوارع منطقة الأوبرا تشبه شوارع وسط القاهرة، شريف وعماد الدين وعدلي وعبد الخالق ثروت وغيرها، كانت المباني أيضا تشبه مبانيها، إلا أن المباني في باريس احتفظت بشكلها ونظافتها ورونقها.

فلم يحدث أن بنى أحدهم طابقين فوق المبنى من طراز آخر، وقد تركه على الطوب دون دهان، كما يحدث في مباني وسط البلد بالقاهرة الآن، ولم يحدث أن اتخذ أحدهم من مدخل العمارة بوتيكا وصار الدخول إلى العمارة

صعبا وبالدور. كما لم أرَ فوضى اللافتات، فهذه لطبيب وأخرى لترزي وثالثة لمحل أقمشة أو نجف في الطابق الرابع أو الثالث، لكن اللافتات تكتب في مكان مخصص في مدخل العمارة كلها شكل ولون واحد، وقد كُتب عليها أرقام الشقق وأنواع النشاط المختلفة في أناقة ودقة بالغتين.

وها هو محل جاليري لافايت Gallery Lafayette الذي يعتبر من معالم المدينة وجزءا من تاريخها، ذي السقف الزجاجي كثير الرسوم والتفاصيل، الأناقة البالغة تبدو من الداخل والخارج. فهو في اثنين من المباني يتخلّلهما شارع وقد اتصلا بكوبري في الدور الأخير للمحل. عند دخولي كانت تتجاذبني بائعات الماكياج بالدور الأرضي، حتى إن إحدى الموظّفات المغربيات في هذا القسم طلبت مني أن أستمهلها حتى تزيّن وجهي بمساحيق خُصصت لذوات البشرة السمراء أمثالي، وقد أخبرتني بأنها سوف تهدي لي علبة ماكياج صغيرة في نهاية التجربة.

وعدتها بأنني سوف أمرُّ عليها بعد انتهائي من جولتي بالمحل، وفي جولة بالمحل رأيت عالما آخر من الأناقة والجمال، كانت المنافسة في الأناقة واضحة بين المعروضات وروّاد المكان، وبعد أن تجوّلت بين الأقسام الرائعة بالأدوار المختلفة للمتجر العريق، ثم أخيرا نزلت إلى قسم مستحضرات التجميل، وعلى مقعد مستدير في قسم مستحضرات تجميل لوريال L'oréal استسلمت لفطيمة، التي كانت تتابع وضع الكريمات والمساحيق على بشرتي، لم تكن أمامي مرآة، كانت تذهب وتجيء بمختلف الألوان والأصناف ومن أقلام وفرشاة وقطع أسفنجية وغيرها، أتبعت ذلك بأن رسمت عيني بالكحل وأضافت الماسكرا إلى رموشي. ما أن انتهت حتى ارتفع صياح زملائها في القسم، رأيت نفسي في المرآة بشكل آخر، فلم يكن لي عهد بهذه المساحيق والألوان، إلا أقلام الكحل وكذلك أصبع الروج فقط.

تركتني فطيمة لدقائق ثم عادت وقد صحبت سيدة في الخمسين من عمرها تقريبا، شديدة الجمال والأناقة، ترتدي قميصا من الحرير باللون السكري مزينا بوردة حمراء وجيب قصير رمادي اللون وحذاء عالي الكعب. قد ازدان عنقها بعقد من اللولؤ الأبيض يتخلّله بعض حبات سوداء، كما يتدلّى من أذنيها قرط من نفس اللؤلؤ، وقد أومأت إليَّ وقالت بونجور Bonjour، ولم أكن أعلم أن كلمة Bonjour وهي صباح الخير هي تحيَّة أهل فرنسا حتى غروب الشمس، على عكس الإنجليز الذين تبدأ عندهم وكذلك عندنا في مصر تحية الصباح حتى الثانية عشر ظهرا، وبعد ذلك تبدأ تحية بعد الظهر.

وكانت تتحدَّث بجدية وثقة بالغتين، ترجمت لي فطيمة أن السيدة تعرض عليَّ أن أعمل لديهم لتجربة ما يناسب البشرة السمراء عليَّ، وعند اعتذاري حيث إنني أتيت إلى هنا بغرض السياحة، أعطتني كارت لها وقد كتبت عليه عبارات بالفرنسية لم أفهمها، أخبرتني فطيمة أن السيدة (مدام ديمونيك) تعمل مديرة في شركة لوريال L'oréal، وأنها اليوم بالصدفة تزور هذا المحل، وأنها أكبر منصب في التوزيع في غرب أوروبا، واستمهلتني نصف ساعة قضيناها في الثرثرة، وأعطتني تليفون منزلها وأخبرتني بأنهم يحبون المصريين، كما أن شقيقتها متزوجة من مصري من مدينة بلقاس بدلتا مصر.

أهدتني فطيمة شنطة وقد ملأتها من عينات مستحضرات التجميل والعطور وكذلك إيشاربورديّ اللون من الحرير الفاخر، قالت لي: "لا تنسينا وخلي بالك من الكارت اللي معاكي ده أهم من شهادة البكالوريا". فشكرتها وودَّعتها وانصرفت.

استقللت الأتوبيس نفسه عائدة إلى الفندق، فقد حان موعد عودة فريد الذي طرق الباب بعد نصف ساعة قضيتها وأنا أسترجع أحداث اليوم المتباينة والمتعددة.. وبادرني:

- إيه إللي إنتي عاملاه في نفسك ده؟

- غيّر هدومك وخد حمام وأنا أحكي لك عن أعجب يوم شفته في حياتي.

رحت أحكي له تفاصيل يومي بدقة شديدة وترتيب، وكأنني أقول لنفسي إنه شريكي يجب أن يحاط بما رأيته وحدي، وقصصت عليه تفاصيل اليوم، وعرض العمل الذي جاءني، كنت أستحضر مكالماتي لعم محمود طالبة منه تعريفي بإحدى المريضات أو المرضى حتى أهتمَّ بهم مقابل القليل من المال في مصر، أما هنا فيبدو الأمر مختلفا تماما، لماذا لا فالرواج يبدو في كل مكان، المطاعم والمقاهي عليك الانتظار حتى تحصل على مكان، وأحيانا تصطفُّ في طابور لمدة طويلة، محالُّ الملابس تقف أمام الكاشير في طابور أيضا حتى تدفع ثمن ما اخترته من بضائع، محالُّ العطور والماكياج تمتلئ عن آخرها بالزبائن، وقد حمل كل منهم سلة يضع فيها ما يختار من منتجات مختلفة. نعم هكذا البلاد الغنية.

ذهبنا في المساء إلى مطعم مغربي بميدان الجمهورية La république قيل إنه مملوك للملك مصر السابق أحمد فؤاد، تديره زوجته فضيلة، كان المكان في غاية الأناقة، انتشرت الفسيفساء المغربية على جدرانه وأحيطت النوافذ بالنقوش التقليدية للمغرب، وعلى صوت أم كلثوم تناولنا عشاء بدأ بالحساء المغربي (الحريرة) وهو حساء به مجموعة من الخضراوات تسبح فيها قطع صغيرة من اللحم وحبَّات الحمص، وله طعم جميل مميز ذو توابل خاصة مختلفة. أما الطبق الرئيسي فكان طبقين من الكسكسي المغربي وقدحا يحوي لحم العكاوي المطبوخ مع القراصيا والزبيب، كان طبق الحلو

عبارة عن قطعة من الكيك الساخن المشرب بالشكولاتة علها قطعة من الآيس كريم وقد وضعت فوقها المكسرات المحمصة.

كان المكان راقيا والعشاء شهيا ومختلفا أيضا عما اعتدته من طعام، أما الحضور فكانوا مزيجا من التوانسة والمغاربة والمصريين. في اليوم التالي خرجت إلى رحلة الأتوبيس بعد أن انصرف فريد إلى عمله، كان متحف اللوفر Musée du Louvre وجهتي وقد كان عليَّ أن أختار ماذا أحبُّ أن أرى، خاصة أن المتحف كبير جدا ولا يمكن لزائر اليوم الواحد أن يحيط بمقتنياته التي بهرتني حين رؤيتها، وقد اكتفيت بثلاث قاعات تحوي إحداها لوحة الموناليزا للرسام الإيطالي ليوناردو دافنشي.

عُدت إلى الفندق بعد أن قضيت ساعة عند كنيسة نوتردام notre Dame الرائعة، فقد كنت شاهدت فيلما عنها "أحدب نوتردام" عن قصة الكاتب الفرنسي المعروف فيكتور هوجو، رحت أتجول بين لوحات ونقوش ومقتنيات الكنيسة من الداخل في هدوء وسكينة أضفاها جو الكنيسة العتيقة على كل من كان بداخلها سواء للمشاهدة أو الصلاة.

توجَّهنا في المساء بعد عودة فريد إلى الحي اللاتيني للقيام برحلة نهرية بنهر السين La seine، تحرَّكت بنا الباخرة متجوِّلة في النهر الأنيق الضيِّق في رحلة لا تُنسى، مررنا فيها على كثير من المعالم الباريسية، عند نهاية الرحلة النهرية دخلنا إلى الحي اللاتيني للعشاء، كانت المطاعم تتشابك وتتراصُّ كل بجوار الآخر، فهذا تركي وآخر تونسي وثالث مغربي أو إيطالي، كان موظفو هذه المطاعم يدعون المارة بكل لغات العالم للدخول إلى مطاعمهم، كما كان يوجد الكثير من المصريين يعملون في هذه المطاعم.

دخلنا مطعما يونانيا تنبعث منه موسيقى الزوربا المعروفة، وقد ازدان سقفه من الداخل بورق النقد من جميع أرجاء العالم، كان عشاؤنا من لحم الضأن المشوي مع المسقَّعة التي يطلقون عليها "موساكا"، وقد قدَّموا لنا النبيذ الأحمر صناعة المحل. كان الروَّاد يقومون بتكسير الأطباق بين الحين والآخر طبقا للعادة اليونانية، وقد جُهِّزت أطباق من نوع خاص من الفخار خصِّص لهذا الغرض. وبين الضجيج والرقصات وموسيقى الزوربا اليونانية قضينا ليلة رائعة، استقللنا سيارة أجرة لدى خروجنا من المطعم للعودة إلى الفندق.

استيقظنا في التاسعة من اليوم التالي، وبعد الإفطار المشبع خرجنا إلى الشانزليزيه Champs Élysées حيث أقيمت المتاريس تمهيدا للعرض العسكري الذي بدأ برئيس الدولة الذي تجوَّل في سيارة مكشوفة حيًّا منها الجماهير المصطفَّة على ضفتي الشارع، ثم اتَّجه إلى نهاية شارع الشانزليزيه Champs Élysées من ناحية ميدان الكونكورد Place de la Concorde ليكون بصحبة ضيوف الدولة من قادة الدول المختلفة في منصة على شكل مدرج أقيمت لهذا الغرض في هذا المكان، ليبدأ العرض العسكري بسلاح الجوِ الفرنسي الذي قدَّم عروضا بهلوانية بالطائرات، كما ظهرت طائرات أخرى تخرج منها ألوان العلم الفرنسي. بدأت القطع الأرضية في التحرك في الشارع، ووسط تصفيق وصراخ الجماهير التي وقفت منذ بداية العرض خلف المتاريس التي وضعت بإحكام ودقَّة، كانت تمرُّ وحدات من قوات الجيش الفرنسي، وكذلك طلبة وطالبات الكليات العسكرية بأزياء أنيقة متعددة الألوان. كان الجو شديد الحرارة والشمس قوية، فأوينا إلى الفندق بعد انتهاء العرض نستمتع بهواء الغرفة المكيَّف.

وفي مطعم لبناني في شارع متفرّع من الشانزليزيه تناولنا وجبتنا قبل غروب الشمس، وكانت تتكوَّن من مشويات مشكَّلة مع أطباق الحمص والفتوش والتبولة. قدَّموا لنا مشروب الجلاب اللبناني الذي يشبه طعمه طعم ماء الورد وقد سبحت فيه حبات الصنيبر المحمص. ومع كوب الشاي المنعنع تناولنا الكنافة والبقلاوة قبل مغادرة المكان إلى محلِّ العطور سافورا إلى الجانب الآخر من الشانزليزيه، حيث اشترى فريد كمية من العطور، أهداني منها ثلاث زجاجات فاخرة.

نزلنا من الفندق في المساء واتجهنا إلى أحد الجسور في نهاية أحد الشوارع على يمين الشانزليزيه في مواجهة برج إيفل La Tour Effel، كانت الشوارع زحاما شديدا والكلُّ يتوجَّه حيث نذهب، والكلُّ يحاول أن يجد مكانا على الرصيف أو حتى أرض الشارع من أجل الجلوس؛ حيث الجميع في انتظار الألعاب النارية التي تشتهر بها باريس هذه الليلة. وبالفعل بدأت الألعاب، فكانت السماء تضيء وتتلوَّن بألوان العلم الفرنسي، وكلما انطلقت وتميَّزت هذه الألعاب كان الصخب يعلو، وبين التصفيق والهتاف والصراخ قضينا ساعتين كان أهل فرنسا فخورين ببلادهم، يتبادلون الرقصات والأغاني والقبلات الفرنسية الساخنة، قد شاركناهم فرحتهم ورقصاتهم وقبلاتهم في عيدهم. كانت الليلة مختلفة؛ فهي استثنائية في كل شيء، وهي الأخيرة لنا في عاصمة النور حيث يجب أن نغادرها في الصباح.

بعد أن تناولنا الإفطار في مطعم الفندق، أنزل عامل الحقائب متعلقاتنا إلى البهو بالأرضي، ذهبنا من أجل إحضار سيارة كان فريد قد استأجرها بالمراسلة من مصر، كان جراج السيارات في وسط الشانزليزيه Champs Élysées خلف فندق ماريوت، الذي وصلنا إليه بعد أن سرنا إليه لمدة ربع ساعة، لم يكن في المكتب إلا موظفة صغيرة السنِّ لا تتعدَّى الثلاثين، وقد

بادلناها التحية حيث أبرز لها فريد الرخصة الدولية وبطاقة الائتمان فقامت بتصويرهما بماكينة تصوير على الكاونتر أمامها، وأضافت الاسم والبيانات إلى جهاز كمبيوتر أمامها، وخرج عقد الإيجار في أقلّ من دقيقة، وقد كُتِب عليه كل البيانات المطلوبة، وبخفة شديدة دعتنا للنزول إلى الجراج من باب صغير بجوار المكتب، وتوجَّهت إلى سيارة رينو متوسطة الحجم ذات بابين تعمل بوقود الديزل، حيث إنه كان أرخص ثمنا من البنزين، وأن السيارة تقطع بهذا الوقود أكثر مما تقطعه بنفس الكمية من البنزين، وأعطت فريد المفتاح وتمنَّت لنا رحلة سعيدة وهي تودِّعنا قائلة لنا bon voyage أي "رحلة سعيدة".

خرجنا من الجراج حيث لم يستغرق زمن هذه العملية أكثر من خمس دقائق منذ دخولنا إلى المكتب حتى خروجنا بالسيارة، فقد كانت جديدة ونظيفة جدا واكتشفنا أننا أول من يستعمل هذه السيارة؛ فقد كان عدد الكيلومترات التي قطعتها أربعة طبقا لقراءة العداد.

اتَّجهنا يمينا إلى الفندق حيث أخذنا حاجاتنا، وقُبلة على خدِّ فريد منحته إياها موظفة الاستقبال، وانطلقنا عبر شارع جراند أرميه Grand Armé الذي هو امتداد للشانزليزيه Champs Élysées من ناحية قوس النصر Arc de Trimph، انحرفنا يمينا عند بورت مايو Port Maillo إلى الطريق الدائري La perphérie في اتجاه الشمال.

كان فريد يقود السيارة كالأوروبيين تماما، فقد كان يحافظ على حارة السير ولم يكن يترنَّح خارجها كما يحدث في مصر، وكان يترك مسافة عند الوقوف بينه وبين السيارة التي أمامه تسمح برؤية الإطارات الخلفية للسيارة أمامنا على الأسفلت، كان كثيرا ما يحكي لي عن بعض قواعد المرور ودلالات اللافتات والخطوط الموجودة على الأرض، حيث إن السائق عليه اتِّباع كثير

من التعليمات التي يجدها إما مكتوبة على اللافتات أو على أرض الطريق هنا في أوروبا.

كما علّمني قراءة أنظمة وشروط الانتظارعند رَكن السيارة في أي مكان. الطريق يزدحم بالسيارات دون توقُّف أو ربكة. الكل يلتزم بالقواعد والآداب. السيارات النقل العملاقة على اليمين تتحرّك في حارتين فقط. الكلُّ ملتزم بطريقه. السيارات تتحرّك بالسرعة القصوى ١٣٠ كم/ ساعة دون مشاكل. اللافتات كثيرة وواضحة. وعند كل مخرج على الطريق توضع اللافتات للإخبار عن المخرج. وتتابع كل مائة متر معلنة عما تبقّى من الأمتار حتى المخرج. أما محطات تحصيل الرسوم فهي كثيرة متعدّدة المخارج. لا تؤدي إلى زحام وتوقُّف كما يحدث عندنا. تسبق محطة الرسوم لافتات تخبر عن المبلغ المطلوب في المحطة القادمة لتجهيز المبلغ المطلوب. وقد علقت ثلاث صور إرشادية قبل المحطة مباشرة. الأولى لسلة يظهر فوقها عملات معدنية وهي لمن معه عملات معدنية. فعليه أن يتجه إلى هذا المسار. ويلقي بالعملات المعدنية في السلة فتنفتح البوابة مباشرة دون أي وقت. أما الصورة التالية يظهر فيها البطاقة الائتمانية حيث يمرّر راكب السيارة بطاقته الائتمانية فتفتح البوابة أمامه فورا. ويكون الجهاز قد خصم قيمة رسوم المرور من البطاقة. اللافتة الثالثة لأولئك الذين يدفعون وينتظرون باقي النقود فيظهر فيها صورة موظف التذاكر. قذف فريد العملات المعدنية في السلة فانفتحت البوابة واستكملنا سيرنا طبقا لخريطة قد أحضرناها معنا. بعد أن أعلمني خط السير لأكون ملاحا له في هذه الرحلة.

دخلنا إلى مدينة دوفيل الساحلية بعد ثلاث ساعات توقّفنا خلالها في استراحة لمرة واحدة: لتناول المشروبات والتقاط الأنفاس. وأمام فندق قديم

صُمّم على الطراز القوطي الأوروبي العتيق توقّفنا، ركنّا السيارة في المكان المخصص لروّاد الفندق ثم دخلنا إليه.

كان المدخل مبهرا بحق، البهو واسع جدا يرتفع سقفه لحوالي ثمانية أمتار، تتدلّى من السقف ثريا معدنية كبيرة جدا وقد طُليت باللون الأسود. الحوائط كُسِيت بورق الحائط الحريري باللون الأحمر الداكن في الجزء العلوي، والجزء السفلي من الحائط قد كسي بالخشب المضلّع ذي اللون البني المائل للسواد، كما يوجد بيانو ضخم في أحد أركان المدخل، وفي الركن الآخر بار خشبي، وقد امتلأ بمختلف زجاجات الخمر التي لا تحصى. الكاونتر المخصص للنزلاء كان من خشب الورد، وقد ازدان بتماثيل للملائكة وفروع رقيقة من أوراق الشجر تم دقها في الخشب لتصبح أمام تحفة فنية لا يقلُّ عمرها عن مائتين من الأعوام.

الأرضية الرخامية للمكان كانت من البلاطات الرخامية البيضاء والسوداء وكأنها لوحة من الشطرنج الكبير قد غطّت المكان. أما السلم الرخامي الكبير فكان قطعة من الفنّ يحدُّه من الجانبين النحاس الأصفر المشغول يعلوه مقبض اليد من خشب الأرو، وقد توسّط السلم صالونان أحدهما من طراز لويس السادس عشر16 Louis والآخر من الطراز الإمبراطوري Empirique، هكذا أخبرني فريد حيث لم أكن قد خابرت أطرزة الموبيليا بعدُ في هذه الأيام.

وبعد أن أهدى فريد موظفة الاستقبال لوحة من البردي عليها صورة قناع توت عنخ آمون، قد أحضر فريد كثيرا منها لمثل هذه الأغراض، أخبرتنا بأنها اختارت لنا غرفة رائعة ترى البحر مباشرة، قرعت موظفة الاستقبال جرسا يدويا بجوارها لتحضر فتاة جميلة بمشروبات باردة للترحيب بنا، أعطى فريد لعامل الحقائب مفتاح السيارة لإحضار الحقائب إلى الطابق الثاني من

الفندق حيث كانت الغرفة في غاية الأناقة، وتشعر أنك قد عدت إلى الزمن الجميل، فالسرير ذو الظهر الكانيه المذهب، قد غُطِّي بغطاء من الكتان وضع في وسطه شعار الفندق باللون الذهبي، يوجد في أحد الجوانب سكرتيرة صغيرة (مكتب صغير) ومقعد ذو ظهر مرتفع من نفس قماش غطاء السرير، وفي الجانب الآخر مقعدان مخملان تتوسَّطهما مائدة صغيرة مستديرة، كما يوجد شيزلونج في نهاية السرير.

شباك الغرفة كبير وهو ينقسم إلى قسمين حيث يوجد به الشراعة العلوية الثابتة، أما الجزء الأسفل فينفتح بمقبض نحاسي جميل، الستائر ذات اللون النبيتي الداكن مع نقوش باللون الذهبي، ويُرى البحر من هذا الشباك.

لم يكد فريد يخلع ملابس السفر حتى أكملت خلع ملابسي، ورحنا نتبادل القبلات حتى أفقنا بعد ساعات، لم أعلم هل كنت أكافئ حبيبي أم أكافئ نفسي بها على احتفاظي بهذا الرجل.

نزلنا عصرا بملابس البحر حيث عبرنا حديقة الفندق، ثم مشاية من الخشب يتمشَّى عليها روَّاد المدينة بطوال الشاطئ إلى مكان اخترناه للجلوس أسفل إحدى الشمسيات على شاطئ البحر أمام الفندق، لم يكن يميِّز الشاطئ المخصَّص لسكان الفندق غير الشماسي، وقد كُتب عليها شعار الفندق، لم أرَ أي فرق بين الشاطئ العام والمكان الذي نجلس فيه.

كان البلاج يشبه بلاج شرم الشيخ من حيث الروَّاد، وإن كان البحر في شرم أكثر جمالا وأصفى مياها.

كانت كثافة الشماسي أقلَّ من شرم الشيخ، أما الشمس فكانت هادئة يتمتَّع بها الجميع دون خوف من شدَّة حرارتها، رأيت معظم من حولي من النساء

قد خلعن الجزء الأعلى من المايوه لدرجة أنني صرت أشك في أن المايوهات هنا في فرنسا تباع كل قطعة وحدها دون الارتباط بالأخرى.

كان موضوع هجرتي إلى أوروبا يزداد إلحاحا عليّ، وكان هذا الموضوع يحتلُ كثيرا من أحادثينا أنا وفريد، وإذا به يفاجئني بقوله:

- إذا كنتي عايزة تعيشي هنا اعملي زيهم.

- أعمل زيهم إزاي؟

- اقلعي.. (ونظر إلى صدري).

- يا راجل!!

رحت أفكّر فيما قاله لي، ماذا يطلب؟ هل يرغب في رؤية صدري عاريا؟ بالتأكيد لا، فهو يراني عارية في كل الأوقات، لكنه يختبر قدرتي على التأقلم من خلال هذا الطلب الغريب، لم تخُنّي يداي وامتدت إلى ظهري لأنزع حمالة الصدر عني، وأصبح مثل من حولي بين نظرات التعجُّب من فريد، الذي قال لي:

- لو رحتي كده جبتي لنا آيس كريم من الكشك اللي هناك هاسيبك هنا.

وقفت كي أذهب إلى كشك الآيس كريم ولكن شرقيتي جعلتني أنزع البشكير لأستر به نفسي، فلم أستطع التجوُّل وسط الناس هكذا رغم أن الأخريات حولي كنَّ يلعبن الراكيت ويتجوّلن هكذا، وقد رأيت مجموعة من الفتيات يلعبن الكوتشينة على هذا الحال.

بين دوفيل Deville وتروفيل Trouville اللتين يربطهما جسر صغير، رحنا نتجوّل بالسيارة في المساء، ثم نزلنا نتجوّل بين المطاعم والكازينوهات

بالشارع الرئيسي الذي ينتهي بالكازينو الكبير الذي كان الملك السابق فاروق أحد زبائنه المميَّزين.

بينما نحن نتسكَّع بين المطاعم فإذ بفريد يقول لي:

- دي روكسان هنا.

- مين روكسان؟

- مطربة إيرانية الأصل تعمل في فرنسا، كانت تسكن عندي في شرم الشيخ عندما عملت هناك.

- أهلا يا سيدي.

- لازم نسهر هنا.

- ليه بس؟

- تعالي.

أخذنا مكاننا في الملهى الليلي الصغير، حتى إذا ما بدأت روكسان فقرتها حتى رأت فريد فرحَّبت بنا، واحتضنته بشوق واضح، وقبَّلته بحرارة لم تُرِحْني. أحضر لنا النادل زجاجة شامبانيا تحية من روكسان التي جلست معنا بعد أن انتهت من مهمَّتها على المسرح، وإذ بأغنية داليدا سالمة يا سلامة تنبعث لأقوم أنا وأربعة من المغاربة بفاصل رائع من الرقص الشرقي الذي امتدَّ بوضع أغانٍ عربية أخرى جعلت حتى المارة في الشارع يقفون على باب الملهى؛ لكثرة الصخب والتصفيق على الإيقاع الشرقي المميز.

قضينا اليوم التالي والأخير لنا في هذه المدينة الجميلة في كسل شديد بين الفندق والشاطئ والساونا، التي يدخل إليها الرجال والنساء معا دون فصل كما عندنا، وكان الروَّاد يتركون البشكير ليكونوا عرايا تماما داخل غرفة الساونا.

تناولنا عشاءً لطيفا في مطعم الفندق من التي بون ستيك مع بعض الخضراوات السوتيه على أضواء الشموع في جو مفعم بالهدوء والرومانسية، وخلدنا إلى النوم مبكرا.

توجَّهنا في الصباح إلى مدينة كاليه Calais الميناء الفرنسي المعروف، كلما اقتربنا من الميناء تظهر اللافتات باللغة الإنجليزية بالإضافة إلى الفرنسية كما ظهرت محطة تحصيل الرسوم مقسَّمة إلى قسمين يتم التعامل في الدفع في إحداها من الناحية اليمنى؛ حيث توجد عجلة القيادة للسيارات القادمة من إنجلترا. لم تكن المسافة بين دوفيل Deville وكاليه Calais بالقصيرة، كما أن الطريق كان كغيره من الطرق في فرنسا، السيارات تملؤه دون تأثير على انسياب الحركة.

توجَّهنا إلى مكان تسليم السيارات المستأجرة، وذلك تتبُّعا للافتات كتبت وتتابعت لأولئك الذين يرغبون في إرجاع السيارات قبل العبور إلى الجانب الإنجليزي من المانش، أوقفنا السيارة وقد كتبت لافتات واضحة لأسماء شركات استئجار السيارات تسهّل مهمتنا في ترك السيارة في المكان المخصص لها، أفرغنا السيارة من حاجياتنا، وتوجَّهنا إلى مكتب ذي نافذة زجاجية كبيرة، وكان الموظف مشغولا مع أحد العملاء، وما أن دخلنا حتى رفع رأسه لتحيَّتنا وأشار له فريد بمفتاح السيارة المدلَّى في سلسلة تحمل شعار الشركة المؤجِّرة، فعلم أننا نودُّ إرجاع سيارة، فأشار إلى فريد بيده مستفسرا هل كل شيء على ما يرام؟ فأجابه فريد رافعا إبهامه الأيمن إلى أعلى، بمعنى أن كل شيء على ما يرام، فأشار إليه ليقذف له بالمفتاح، ففعل وانصرفنا بهذه البساطة والسرعة.

تذكَّرت مكتب إيجار السيارات أمام العمارة التي أسكنها بالمعادي، وعدد الموظفين والسائقين وكذلك "القبضايات" الذين يستعملهم صاحب المكتب

أحيانا، وكان الفرق بين الحالتين هو الفرق بين الدولتين تماما، فقد كنت كثيرا ما أشاهد المشاجرات والأصوات المرتفعة عند تسليم السيارات، وعندما يكون راغب التأجير قد وقع في الشرك لاحتياجه لسيارة مستأجرة لبضعة أيام، فإن عليه الحضور إلى مثل هذه المكاتب للتوقيع على مجموعة ضمانات وشيكات وإيصالات، وغالبا ما يقوم أحد معارفه أو أقاربه بالتوقيع مثله تماما تضامنا معه، ولا ينتهي الأمر بسهولة عند تسليم السيارة غالبا.

ركبنا المصعد إلى أعلى وأنهينا إجراءات الدخول، حيث تسلّمنا بطاقات الصعود إلى العبَّارة، وتذاكر للقطار من محطة الوصول إلى محطة فيكتوريا في قلب لندن.

مررنا بموظفي الجوازات حيث ختمنا الجوازين دخولا لإنجلترا، وأكملنا إلى العبارة لنضع حقائبنا في مخزن خُصِّص للذلك، واتجهنا إلى القاعة الرئيسية ذات المقاعد الفاخرة كحلية اللون.

وفي الموعد المحدد قرع الجرس، وتحرَّكت العبَّارة، وكان ذلك في الواحدة ظهرا.

لم تكن الوجوه في العبَّارة مثل التي رأيتها في فرنسا؛ حيث كان يغلب على المكان الإنجليز العائدون إلى بلادهم بعد العطلة، كانت اللغة الإنجليزية تتردَّد في المكان بهمس ووقار، الهدوء يملأ المكان، معظم الركاب قد أخرجوا كتبا لقراءتها في صمت.

لم نسمع أي أصوات طوال الرحلة إلا من بعض غير الإنجليز الموجودين بقلَّة في صالون العبَّارة، حتى إنني لم أكن أتحدَّث مع فريد إلا همسا. لم أكن شاهدت هذا النوع من العبَّارات من قبل، كانت طيور النورس تصاحبنا رحلتنا، البحر يمتلئ بمختلف أنواع العبَّارات ذات أشكال وأحجام مختلفة، منها ذات مراوح عملاقة وهي تسير بسرعة كبيرة على وجه الماء، أما العبَّارة التي نركبها فكانت تمتلئ بالركاب والسيارات وتشقُّ مياه المانش بثبات وسرعة.

قضينا وقت العبور بين التراس الخارجي والكافتيريا، التي رأيت فيها توأمين صغيرين جدا وقد أجلستهما أمهما إلى طاولة على مقعدين خُصِّصا للأطفال وكانا يأكلان وكأنهما بالغان، وقد وضعت الأم على صدر كل منهما الفوطة التقليدية، وكانت تتعامل وتتحدَّث إليهما وكأنهما بالغان، مما أثار إعجابي وعلمت بأنه يمكنني الآن التواصل مع نجلي وإنشاء حوار بيني وبينه كما أرى أمامي، فهو الآن أكبر منهما، ونبَّهت فريد إلى ذلك فقال لي هكذا الإنجليز، كان لهذا المنظر الذي علق بذهني أثرا بالغا على علاقتي بعمر، ومنذ أن عُدت وتغيَّرت علاقة الحوار بيني وبينه، ورحت أتخذه صديقا أبحث معه كثيرا من الموضوعات، حتى التي لن يفهمها في الوقت الحاضر، فصار تفكيره وسلوكه أكبر من سلوك وتفكير أقرانه.

وصلت العبَّارة بعد أربع ساعات تقريبا إلى الجانب الآخر، شعرت بأنني قد نقلت إلى حضارة أخرى أكثر تحفُّظا وانغلاقا.. الأصوات أقلُّ من فرنسا،

الحركة أدقُّ، جميع الموظفين قد بدوا في قوالب وأزياء وكأنهم لا يتنفَّسون إلا بالأمر أو طبقا لقواعد العمل. وركبنا قطارا طويلا ذا عربات كثيرة، كلها نظيفة لامعة من الخارج، أما الداخل فكانت القطيفة تعلو المقاعد الوثيرة، وقد انطلق القطار وكأنه كان ينتظرنا حتى يتحرَّك.

شقَّ القطار طريقه بين الحقول بسرعة كبيرة، ولكن دون الضوضاء المعروفة للقطارات لدينا في مصر، كما أن القطار لا يهتزُّ ولا يُسمع صوت لانتهاء القضيب وبداية الآخر كما يحدث عندنا في كنانة الله مصر. كان شكل الحقول يختلف عنها في فرنسا بشكل ما، وكانت الأراضي ترتفع وتنخفض مكوِّنة وديانا وسهولا وهضابا متتالية، وكثيرا ما كان يقابلنا قطارات تمرُّ إلى جوارنا بسرعة البرق.

خيَّم السكون على العربة التي نستقلُّها، فقد كان هدوء العبَّارة ممهِّدا لهدوء أكثر في القطار، كنت أرى السيارات في الطرق وقد سارت بطريقة مختلفة حيث المقود على اليمين والسير على اليسار. أبطأ القطار من سرعته ودخلنا إلى مدينة لندن، لاحظت كثرة القضبان والقطارات بشكل كبير، دخلنا إلى المحطة تحت جمالون حديدي ضخم تتراصُّ القطارات من تحته بجوار الأرصفة المختلفة، كان اللون الأزرق والأحمر يغلبان على ألوان الحديد المشغول الذي يرتكز عليه السقف المائل الذي يعلو القطارات بالمحطَّة.

ما أن خرجنا حتى كان صف من عربات التاكسي التقليدية للعاصمة البريطانية أمامنا، الذي يُعتبر من المعالم المميزة للعاصمة البريطانية، يدخل إلى السيارات الركاب الخارجون من المحطة تباعا دون سؤال عن الوجهة أو فصال أو اشتراط لأجرة معينة كما يحدث عندنا، كما لاحظت أن أحد مستخدمي الكرسي ذي العجلات كان يقف معنا في الصف، وعندما جاء دوره نزل السائق إليه وأنزل رفَّاً من السيارة إلى الرصيف ودفع الكرسيَّ إلى

داخل التاكسي، ثم ربط الرجل بحزام معدٍّ لذلك في سلاسة وسرعة وانطلق التاكسي. نزل السائق إلينا عندما أتى دورنا، وقد أخذ حاجياتنا ووضعها في الأمام من الباب الذي جواره، حيث لا توجد مقاعد في هذا المكان المخصَّص للأمتعة.

ثم ركبنا من الباب الخلفي حيث كان المقعد عاليا ومريحا، المسافة بيننا وبين السائق كبيرة، كان في الكابينة الخلفية للسيارة مقعدان في مقابلنا وقد طويا إلى أعلى يُستخدمان عند اللزوم، فيكون ركاب السيارات في وضع مواجه لبعضهم.

تحدَّث فريد إلى السائق عبر ديكتافون، حيث يوجد حاجز زجاجي بين السائق والركاب، تظهر لمبة حمراء تفيد بأن السائق قد فتح الديكتافون للتحدُّث إليك وسماع صوتك وعندما تنطفئ هذه اللمبة فإن كلا من السائق والركاب لا يسمع كلاهما الآخر؛ تأكيدا للخصوصية والتحفُّظ المميِّزين للشعب الإنجليزي.

كان السائق يسير بسرعة كبيرة وينحرف بحدَّة في الملفات، الشوارع ضيقة مزدحمة ليست مثل شوارع باريس، تسرَّب إليَّ إحساس من الوهلة الأولى أن هذه المدينة إنما هي مدينة العمل، وذلك حتى قبل أن نصل إلى الفندق. أنزل لنا السائق متعلقاتنا وقد أعطاه فريد ما كان العداد قد سجَّله، وأضاف إليه بعضا من البقشيش، الذي دقَّق فيه السائق وشكرنا بأدب واستدار حول نفسه في دورة ضيقة جدا لفتت انتباهي، وانطلق.

تسلَّم حامل الحقائب متاعنا ودخلنا ردهة الفندق، لم يكن هناك أي علامات للجمال أو الشياكة بالمدخل أو البهو، وإن كانت العراقة تبدو على المقاعد والأثاث، وتوحي بأن المكان قديم جدا، وبسرعة صعدنا إلى غرفتنا

بالدور الخامس حيث كان التعب قد حلّ على كلينا من طول السفر. فاستسلمنا للنوم ساعتين. كان موقع الفندق عبقريا فقد كان يقع على ناصية تجمع شارع أوكسفورد oxford street التجاري الشهير مع إدجوار رود Edgware Road الشارع الذي يسكنه العرب، وتوجد به المطاعم والمقاهي التي يرتادها أبناء العرب، وتُقدِم كلّ ما يحتاجونه من مأكولات ومشروبات على طريقة بلادهم حتى الشيشة بجميع أنواعها تقدَّم هنا.

خرجنا في المساء من الفندق إلى إدجوار رود حيث تناولنا عشاء مكونا من الكبة الشامية المطبوخة في الزبادي والنعناع مع الأرز الأبيض، كانت الأطباق الأولى من المزات السورية قد قُدِّمت إلينا على مائدة تقع في الشارع على طريقة المقاهي الفرنسية، وذلك في مطعم سوري. كان الطعام قد أعدَّ بجودة عالية، النادل المصري كان يقدِّم لنا الأطباق في ود واضح، ويتخلَّل إنزال الأطباق أحاديث عن مصر وأحوال المصريين في لندن. أحسست هذه الليلة التي تعتبر الأولى لي في هذه العاصمة الكبيرة براحة واضحة، وكأنني قد اتخذت قرارا بأن تكون هي وجهتي الأخيرة أو مهجري من مصر.

كانت فكرتي هذه تتأكَّد دائما لدى كل حديث وموقف طوال مدة إقامتنا في لندن، لم أرَ ضجرا من المعيشة هنا كما وجدته لدى المغاربة موظفي جالوري لا فاييت Gallerie Lafayette في باريس. النظام واضح في الشارع، وإن كان شكل الشارع غريبا عليَّ من حيث اتجاه السيارات المعكوس في نظري. تحرّكنا إلى مقهى على الرصيف الآخر، كان مزدحما وقد رُصَّت المقاعد متقاربة جدا والناس يتحدَّث كل منهم إلى الآخر. كان الحديث يتشعَّب إلى كل الموضوعات وإن كانت موضوعات السياسة تغلب على حديث الموجودين بالمقهى. أحضر لنا عامل المقهى الشيشة والشاي، وأكملنا

ليلتنا نتجاذب أطراف الأحاديث مع كل من حولنا من أبناء الجالية العربية الموجودين بالمقهى.

لم يكن الفندق بعيدا، فقد وصلنا بعد دقائق معدودة من التسكُّع على الطريقة المصرية.

وفي الصباح كان بوفيه الإفطار مختلفا عن نظيره الفرنسي، فقد أضيفت أوانٍ ساخنة إلى البوفيه الكبير الممتد في نهاية المطعم الواسع ضعيف الإضاءة، وقد وُضِع فيها السجق والبيض المسلوق وكذلك لحم البيكون وهي شرائح رقيقة من لحم الخنزير، كما توجد آنية بها فاصوليا بالصلصة، وأخرى تحوي البطاطس المطبوخة.

خرجنا في جولة على الأقدام، كان الجوُّ لطيفا غائما، فقد شجَّعنا اختفاء الشمس على الجولة التي اقترحها فريد، فقد خرجنا إلى شارع أوكسفورد Oxford Street ومنه يسارا إلى باركلين Barklen ذلك الحي الثري والشهير أيضا، الفنادق العريقة الفاخرة على يسارنا تبدأ بفندق جرز فنر ثم دور شستر وباركلين، وهذه الفنادق تتميَّز بمداخل فاخرة يقف أمامها عمال البوابات ذوو الأزياء زاهية الألوان، وتوجد بها كافتيريات خارجية في بالكونات فخمة، وقد غُطِّيت بالتند لتحمي الروَّاد أشعة الشمس وقطرات المطر التي لا تلبث أن تهطل في لندن في أي وقت ودون أي إنذار.

يوجد في هذا الشارع معارض للسيارات الفاخرة، وعلى الضفة الأخرى من الشارع حديقة هايد بارك، وتمتد على مرمى البصر في قلب لندن لتكون رئة لهذه المدينة الكبيرة المزدحمة. أما العمارات في الشارع الذي نسير فيه والشوارع المحيطة فيبدو عليها أنها لأغنى أهل الأرض، يبدو ذلك واضحا من السيارات البنتلي والرولزرويس والأوستن الأسبور الموجودة في مداخل

الفنادق والعمارات من حولنا. تقع السفارة المصرية في أحد الشوارع الصغيرة المتفرّعة من هذا الشارع وقد انحرفنا إليها، يوجد بجوارها منزل السفير والملحقية العسكرية، وتقع الملحقية التجارية أيضا في المبنى المقابل، حيث تبادلنا التحية مع مجموعة من السائقين المصريين الذين علت أصواتهم وتميَّزت وسط الصمت الإنجليزي الذي يلفُّ المكان، وكأنك فجأة قد انتقلت إلى مصر.

استأنفنا السير في الشارع الرئيسي حتى جرين بارك Green Park في نهاية الشارع، عبرنا نفقا إلى الحديقة التي يطلُّ الطرف الآخر منها على أسوار قصر باكنجهام Buckingham Palace مقر الملكة. كانت الساعة تشير إلى العاشرة والنصف حيث استأنفنا السير في حديقة جرين بارك Green Park بموازاة أسوار القصر الإنجليزي العريق.

وانتهينا إلى الميدان الذي يقع أمام واجهة القصر، حيث يوجد تمثال للملكة فيكتوريا وقد وضعت سنابل القمح بين يديها دليلا على ما جلبه العصر الفيكتوري من خيرات لهذا البلد، فقد توسَّع النفوذ البريطاني خلال هذه الحقبة إلى أطراف الأرض من كل الاتجاهات حتى سُمِّيت بالإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. كان الزحام شديدا والسياح في كل مكان، تترقَّب مراسم تغيُّر الحرس الملكي ذي الزي الأحمر والقبعات السوداء العالية التي يتميَّز بها أفراد الحرس عن كل الأزياء الأخرى.

بدأ العرض بمجموعة من الفرسان ذوي الخيل السوداء والقبَّعات النحاسية العالية اللامعة، تلتها مجموعات أخرى من الفرق بالجيش البريطاني، منها فرق الجركا وهي إحدى فرق الجيش من آسيا، وقد أبلت بلاء

حسنا في الحرب العالمية وقد سُمِّيَت بهذا الاسم نسبة إلى سلاح أبيض ذي نصلين يتسلَّح به أفراد هذه الفرقة، وقد قيل إنه إذا خرج هذا السلاح من غمده فإنه لا يعود إليه إلا بعد أن يريق دما.

عزفت الفرقة الموسيقية للحرس الألحان التقليدية، ودخلت فرق الحرس إلى حديقة القصر حيث دارت مراسم تغيير الحرس التي تجرى يوميا في عرض رائع ومبهر كان محلَّ إعجابي وكل من حولي، الذين حرصوا على التقاط الكثير من الصور وسط هذا الكرنفال اليومي غير العادي. أكملنا سيرنا بعد انتهاء مراسم تغيُّر الحرس مرورا بواجهة القصر الملكي ثم يسارا بموازاة الحديقة حيث كانت السناجب تلعب حولنا وأشجار أبو فروة (الكستن) كانت تظللنا في صف دقيق على طول المسار حتى نهاية الحديقة. مررنا بوزارة الخارجية forgin office وكذلك مقر رئيس الوزراء في دوننج ستريت Downing street من الخلف، ثم انحرفنا يمينا لنعبر إلى شارع وايت هول White Hall street عبر الإسطبلات الملكية للحرس هورس جارد Horse Guard الذي يقف على بابه اثنان من الفرسان فوق حصانيهما الأسودين يقفان في ثبات تام وكأنهما تمثالان. إلى اليسار استأنفنا سيرنا حتى ظهرت الساعة العريقة بيج بن Big Ben التي تشرف على مبنى البرلمان على ضفة نهر التايمز، حيث استمعنا إلى دقَّاتها الشهيرة التي كنت أسمعها عبر هيئة الإذاعة البريطانية من قبل.

كانت شوارع لندن الضيقة مزدحمة جدا، كأنها خشبة مسرح قد مُلئت بالعروض من كل مكان، فالأتوبيس الأحمر ذو الدورين يملأ الشوارع حيث ترى مجموعات من هذه الأتوبيسات تسير في صفوف في حارة على يسار الشارع وقد خُصِّصت للأتوبيسات، تستعملها أيضا سيارات التاكسي

السوداء المميزة عند الضرورة، وهذه الحارة ذات أسلفت أحمر اللون، وقد كُتبت على هذه الحارة كلمة "أتوبيس" باللغة الإنجليزية.

أما عساكر الشرطة فهم بلا سلاح إلا عصاة صغيرة رمزية لا تصلح لشيء، وتظهر سيارات الشرطة والإسعاف التي كثيرا ما تشقُّ شوارع العاصمة في سرعة كبيرة جدا، أما الأرصفة فقد كانت مناسبة للراجلين أمثالنا، وعند كل نزول إلى الشارع تجد على الأرض قد كُتب بخط أبيض واضح "انظر إلى اليمين" أو "انظر إلى اليسار" طبقا لاتجاه سير السيارات الذي يُعتبر مخالفا لاتجاه السير في كثير من بلدان العالم. العلامات الضوئية لعبور المشاة نوعان: النوع الأول إشارة ضوئية تتغيَّر عند اللزوم، وللعابر أن يطلب تغيُّر الاشارة من خلال زر خُصِّص لذلك، فتضغط عليه وتنتظر كما تنتظر المصعد في أي بناية عالية، ويعلن الجرس المصاحب للإشارة عن تحوُّلها للأخضر ليتمكَّن غير المبصرين من العبور. أما النوع الآخر من إشارات عبور المشاة، فتوجد في الأماكن الأقل في الكثافة المرورية حيث توجد أعمدة بقمَّتها لمبات صفراء توجد على جوانب مكان عبور المشاة، في هذه الأماكن تكون الأولوية للسائر على الأقدام، حيث تتوقَّف السيارات بين هذه الأعمدة ذات اللمبات الصفراء عندما يهمُّ السائر بالنزول إلى الشارع.

عدنا إلى الفندق بعد جولتنا التي أنهيناها بنزهة لطيفة على ضفة النهر الإنجليزي التايمز River Thames. ركبنا الأتوبيس من أمام كنيسة وست منستر Westminster Abby بجوار مبنى البرلمان إلى الفندق حيث كانت قطرات المطر قد بدأت في مغازلتنا. المواصلات العامة في مدينة لندن كثيرة ومتعددة ومنتظمة جدا، فشبكة الأتوبيس تعمل في كل الاتجاهات على مدى ٢٤ ساعة، حيث يوجد الأتوبيس الليلي وتتميَّز محطاته بصورة القمر أو حرف N إشارة، وهو الحرف الأول من كلمة ليل باللغة الإنجليزية. كما أن

مواعيد وصول وحركة الأتوبيسات قد كُتبت بدقة على المحطات، وقد زُوِّدت بمكان للجلوس ومظلة لحماية الركاب من الأمطار.

أما قطار الأنفاق Underground فهو معجزة بكل التقديرات، فقد تم افتتاح أول محطة لقطار الأنفاق في الستينيات من القرن التاسع عشر، حيث زامن عمل قطارات الأنفاق في لندن حفر قناة السويس في مصر، واللافتة الموجودة في محطة بيكرستريت Baker Street المجاورة لمتحف الشمع تدل على ذلك.

توجد عدة شبكات من القطارات والمحطات تقع على مسافات بعيدة في باطن الأرض يتم النزول إليها بالسلالم الكهربائية في معظم الأحوال، كما تستخدم المصاعد في قليل من المحطات. القطارات سريعة جدا، كما أن زمن التقاطر في ساعات الذروة قد لا تزيد على دقيقتين، ومع ذلك فإن هذه القطارات تكون في غاية الزحام هذه الأوقات. معظم أهل المدينة تستعمل المواصلات العامة لنظافتها وسرعتها ورخص سعرها بالنسبة لاستخدام السيارة الخاصة، كما أنه يوجد نظم للاشتراك تتيح استعمال الأتوبيس مع قطار الأنفاق بنفس الكارنيه، بالإضافة إلى قطار الضواحي الذي يأخذه سكانها من نهايات خطوط قطارات الأنفاق. كلما ازدادت معرفتي بهذه المدينة زاد تعلقي بها وكأنني أتوجَّه رويدا رويدا إلى القرار أن يكون القرار في هذه المدينة.

بعد أن قضينا وقتا في الغرفة كنا نستعدُّ للجولة الثانية في المدينة الكبيرة لندن؛ حيث كنا على موعد على العشاء في الثامنة في منزل أحد أصدقاء فريد بمنطقة هندون في الشمال من لندن. ركبنا الأوتوبيس رقم ١٥ من جوار الفندق وصعدنا الدور الأعلى منه، كان مسار هذا الأتوبيس وكأنه خُصِّص من أجل السياح يمرُّ على أهم شوارع العاصمة، حيث يسير في شارع

أوكسفورد Oxford Street وهو أكثر الشوارع التجارية في العالم زحاما وشهرة، ثم ينحرف يمينا إلى شارع ريجنت Ringet Road حيث توجد محالُّ الملابس للماركات العالمية المشهورة، وينتهي الشارع في ميدان البيكاديلي piccadilly circus بإعلاناته المضيئة التي لا تتغيَّر.

يستكمل الأتوبيس طريقه نحو كنيسة سان بول كاتدرال Saint Paul Cathedral التي تمَّ فيها زفاف الأميرة ديانا إلى أمير ويلز، ثم يتابع السير مخترقا حي السيتي (حي المال) حيث توجد البنوك والمؤسسات المالية العملاقة، ومنها البنك المركزي البريطاني حيث يوجد الغطاء الذهبي لجميع عملات العالم في بدروم ذلك البنك المقسَّم إلى وحدات، يوجد غطاء كل دولة في إحدى هذه الوحدات، وعند المعاملات الدولية الكبرى بين أي من الدول والأخرى، فإن الذهب ينتقل من مربع الدولة الأولى إلى مربع الدولة الثانية، وأخيرا يظلُّ الذهب في خزائن البنك المركزي للدولة العظمى المملكة المتحدة.

نزلنا عند تاور بردج Tower Bridge حيث يوجد الجسر العتيق ذو الزخارف والنقوش على الحديد الأزرق المكوِّن لهذا الجسر، الذي يتكوَّن من برجين حجريين تربط بينهما وصلات الحديد، وبجواره يقع متحف المجوهرات الملكية وهو قصر ملكي قديم على هيئة قلعة. عبرنا الجسر إلى الناحية الأخرى، حيث لندن القديمة ذات الشوارع الضيقة والحارات الملتوية، وهذه المنطقة يطلق عليها ديكنز لندن حيث إنها كانت المنطقة التي كتب الكاتب العالمي تشارليز ديكنز معظم رواياته الخالدة فيها، وعنها أيضا.

تجوَّلنا بالمنطقة حول مرسى اليخوت ومطاعم وكافتيريات عريقة، إحداها كان في الماضي سجنا وقد زُوِّد العاملون بهذا المطعم بزي حراس السجن، بالإضافة إلى الديكور الذي يوحي لروَّاده بأنهم في أحد سجون عصور ما

قبل النهضة. توجّهنا إلى منزل مضيفنا بقطار الأنفاق بعد انتهاء جولتنا، المنطقة أكثر قاطنيها من اليهود الأغنياء، وقد كانت هذه المنطقة في الماضي تجرى بها عروض الطيران المختلفة. وتتميَّز هذه المنطقة بمحالِّ الكوشر أيضا وهو طعام اليهود الذي يتم ذبح الحيوانات كما في شريعة المسلمين، ويُقبل كثير من المسلمين على هذه المحالّ للحصول على الطعام من اللحوم المذبوحة.

الحي هادئ والمباني مختلفة من أطرزة حديثة توحي بثراء قاطنيها. وصلنا في الموعد المحدد، وكان مضيفنا في انتظارنا وزوجته الأسكتلندية وابنتاه المراهقتان، وبعد عبارات الترحيب أهديت زوجته زجاجة عطر فرنسي كنا قد جهّزتاها بلفافة أنيقة لهذه الزيارة.

علمت من فريد أن صديقه ماهر قد جاء إلى هنا بعد أن أخفق في الحصول على مجموع يؤهِّله لدخول كلية مرموقة في مصر، وبدأ في العمل في المطاعم والفنادق حتى أصبح يملك فندقا متوسط الحجم يدرُّ عليه دخلا يجعله مصنَّفا بين طبقة الأغنياء بمقاييسنا في مصر. وأنه قد تعرَّف على زوجته سوزان أثناء عملهما في أحد المطاعم وتزوَّجا.

جلسنا إلى مائدة بيضاوية يتوسَّطها شمعدانان على شكل زهرة اللوتس المصرية، وقد أضيئت فيهما الشموع الحمراء. تكوَّن العشاء من حساء البطاطس وقطعة من البوفتيك Entrecote steak المشوي جيدا، مع صوص الفطر، وطبق من الخضراوات السوتيه.

اختار ماهر زجاجة من النبيذ الفرنسي الأحمر من بين مجموعة زجاجات امتلأ بها رف البار الأنيق الذي يقع في غرفة المعيشة، وتبادلنا شرب الأنخاب منها مع العشاء.

أكملنا حديثنا في غرفة المعيشة، وقد أشعل ماهر غليونا كانت تفوح منه رائحة جميلة وقد أهداه فريد علبتين من تبغ الغليون كان قد اشتراهما من محل للأدخنة بالحي اللاتيني في باريس، كان صاحبه رجلا عجوزا قد حيًّا فريد تحية حارة، وكأنهما يعرفان كل منهما الآخر، وأعطاه التبغ دون مناقشة ودون أن يطلبه، وقد علمت أن هذا النوع هو المفضَّل لدى ماهر، وقد اعتاد فريد الحصول عليه من هذا الرجل لصديقه عندما يكون في باريس. أعرب ماهر عن رغبته في إنشاء فندق في سيناء؛ حيث إنه قد يكون في ذلك إغراء لإحدى ابنتيه أو كليهما لزيادة الارتباط بالوطن الأم مصر.

كانت جلسة هادئة خيَّم عليها الطابع الإنجليزي، الأصوات منخفضة والكلمات قليلة ولغة الحديث تتجوَّل بين العربية والإنجليزية، فقد اجترَّ فريد وصديقه ذكريات كثيرة عن مصر وعن الأيام الأولى لماهر في بريطانيا، وكانت هذه الأجزاء من الأحاديث عن الأيام الأولى في لندن محلَّ اهتمامي وتركيزي، وإن كانت الحكايات تحكى دون أن يقصد أو يعرف صاحبها رغبتي في الهجرة إلى هنا. ولما هممنا بالانصراف أصرَّ ماهر أن يصحبنا بسيارته إلى الفندق، وكنت خلال هذه العودة أتأمَّل الشوارع الهادئة حولي وكأنني أتفحَّص بدقَّة وطني الجديد.

جهَّزنا حقائبنا حيث كان علينا التوجُّه إلى ريف مدينة باري Bary في إقليم ويلز Wales في جنوب غرب بريطانيا صباح الغد.

الريف الإنجليزي

أحضر فريد السيارة التي استجرها من مَرْأب قريب جدا من الفندق، ووضعنا الأمتعة وانطلقنا. لم أكن أتصوّر أن فريد يتعامل مع السيارة ذات المقود على الناحية اليمنى بهذه البساطة؛ حيث إنني لا أستطيع أن أُقدِم على هذه التجربة، وكنت أتامّل قيادته في هذا الوضع المقلوب بتعجُّب شديد.

اتجهنا إلى الغرب مرورا بوسط المدينة حتى الطريق الرئيسي للمطار الذي يبدأ بعد جسر في منطقة همرسميث (Hammersmith). قضينا حوالي ست ساعات في الطريق؛ حيث توقّفنا مرتَيْن للاستراحة حتى وصلنا إلى هذا الإقليم، بدأت اللافتات تُكَتب بطريقة أهل ويلز (Wales)؛ فمثلا العاصمة كارديف تُكَتب "كارديد"... وهكذا.

كانت إقامتنا في مزرعة تبعد عن المدينة باري حوالي خمسة أميال، وصلنا إليها من خلال الخريطة التي حصلنا عليها للمكان.

المكان عبارة عن موتيل صغير كان في الماضي مقرًّا لعمَّال المزرعة الذين استُبدلوا بالآلات والمعدَّات الحديثة. تمتلك هذا المكان أسرتان شقيقتان من تسعة أفراد، رجلان أشقاء زوجاتاهما وخمسة أبناء للأسرتين في أعمار

بين الثامنة والسادسة عشرة، كل شيء يتمّ عمله داخل المزرعة. الغرف يغلب عليها الطابع القديم؛ فطلاء الحوائط داكن اللون وكذلك الموبيليا ذات الألوان الداكنة للخشب الإنجليزي، السقف مائلا؛ حيث كنَّا نسكن بالطابق العلوي، وقد سند السقف المائل بجذوع خشبية استُخدمت لتثبيت السقف دون طلاء أو تهذيب. في الدور الأرضي قاعة بها ست موائد، خُصِّصت لمرتادي المكان، كان العشاء من الدجاج والبطاطس والمكرونة بطعم إنجليزي يُشبِه الطعام الذي يُقدَّم للمرضى في المستشفيات.

خيَّم السكون التام على المكان، وكان روَّاد الفندق قد أكملوا سهرتهم حول التليفزيون في غرفة خُصِّصت للتدخين بجوار قاعة الطعام، وقد تصدَّرت هذه الغرفة مدفأة تعمل بالخشب، وقد كُسِيت الحوائط بورق الحائط، وزُيِّنت بصور قديمة لأعضاء العائلة، وقد وُضعت تحت كل صورة ورقة توضيح عن صاحب الصورة ومناسبتها وتاريخ التصوير الذي تراوح ما بين ١٨٩٨ وحتى أحدث الصور، وكانت لأحد أفراد العائلة في يونيو من عام ١٩٥٢، وهم يحتفلون بتتويج الملكة الحالية إليزابيث الثانية. كان الجميع يتكلَّم في همس، حتى إنني كنت أتحدَّث إلى فريد بنفس الطريقة، وكان الضحك يغلب عليَّ دائما عندما أتحدَّث إليه هكذا.

دخلنا غرفتنا وأوينا إلى السرير، وكأننا في أعماق البحر في صمت رهيب وقد لفّ المكان.

فَتَحتُ عينيّ في الصباح على حقول خضراء على امتداد النظر، لم تكن الأرض منبسطة، ولكنها كانت تتقاطع في شكل تلال، الأغنام البيضاء تتحرَّك على صفحة خضراء لا تنتهي، الأشجار في كل مكان، أصوات الآلات تزمجر، وقد امتطى الرجلان آلتين كبيرتين وتحرَّكا إلى الحقول المجاورة، السيدات

قد أعددن طعام الإفطار المكوَّن من البيض والزبد والجبن والمربى المختلفة، وقد تميّزت جميع مكوِّنات الإفطار أنها أُنتجت في هذه المزرعة.

حضر أحد الأشخاص في سيارته ليصطحب فريد بعد أن ودَّعني على أن يعود في السادسة، كان يومي مختلفا؛ حيث تقدَّمتْ إليَّ إحدى السيدتين وقدَمت لي نفسها باسم هلين، بعد أن عَلِمت أننا مصريون، وأخبرتني أنها ابنة لأحد مهندسي الجيش البريطاني، وأنها قضت مع والدها عامَيْن بالإسماعلية في مصر وهي رضيعة، وأن أمها تحمل ذكريات جميلة عن مصر، كما أن لوالديها صورة عند الهرم الأكبر، أحضرتها إليَّ من سكنها، وهي تعتزّ كثيرا بهذه الصورة، وأن مِن أحلامها أن تزور مصر وتتجوَّل في الباخرة بصعيد مصر كما فعل أخوها وزوجته في العام الماضي، وقد عادا بانطباعات رائعة عن هذه الزيارة. أحسست بطيبة هذه السيدة، وكذلك الأخرى التي انضمَّت إلينا لوقت طويل؛ حيث كان عليها أن تقود الجرار الزراعي لتلحق بزوجها طبقا لجدول العمل بالمزرعة.

في الثانية ظهرا، دعتني هلين لاصطحابها إلى محلب الألبان؛ حيث توجَّهنا سويًّا على جرار زراعي صغير إلى مبنى في نهاية المزرعة، دخلنا إليه بعد أن غسلنا أيدينا جيّدا، وقمنا بتنظيف أحذيتنا بفرشاة مبلّلة بمواد مطهّرة، وكان المحلب عبارة عن عنبر تدخل إليه الأبقار، ويتمّ حلبها آليًّا ثم تخرج من الناحية الأخرى.

وقد تعجَّبت وأنا أرى الأبقار تأتي متتابعة دون أي مجهود بمجرّد فتح الباب للممر، وقد أخبرتني أن الأبقار تكون في حاجة إلى إفراغ اللبن، وتعلم الموعد لذلك وتقبل عليه.

كانت صورة السيدة أم أحمد -جارة جدتي في الوراق- تطلّ في مخيّلتي وأنا أراها تحلب جاموستها، دون أي اهتمام بقواعد التعقيم والنظافة التي أراها أمامي، تذكّرت يوم أن أهدتنا جارة جدتي آنية من الفخار تحوي السرسوب، وهو اللبن المسمار الذي يعقب الولادة مباشرة، وهو غنيٌّ بالبروتينات، ومن خواصه أنه عندما يدخل الفرن في الأواني الفخار؛ فإنه يتجمّد في طعم رائع، قد لا يعرف الكثير من الناس هذا النوع من اللبن أو هذا الصنف الشهير في ريف مصر (طاجن السرسوب).

عدنا إلى الموتيل بعد أن انتهت السيدة من عملها، وقد صعدت إلى غرفتي في انتظار فريد الذي حضر في موعده. خرجنا في المساء بعد أن حصل فريد على قِسط من الراحة، وتوجّهنا إلى البب بالبلدة طبقا لتوجيهات أصحاب المزرعة، وهناك كان المكان مزدحما بروّاده؛ فاليوم الجمعة وهذه ليلة السبت التي يُسرِف فيها الإنجليز في تناول البيرة؛ احتفالا بنهاية أسبوع من العمل إلى راحة نهاية الأسبوع، والبب هو بار يتجمّع فيه أهل المكان لتناول المشروبات؛ خصوصا البيرة، ويستمتعون بالموسيقى التي قد تكون صاخبة أحيانا، ويعتبر البب جزءا من ثقافة الشعب الإنجليزي.

تناولنا عشاءً مكوّنا من سمك الكود المقلي والبطاطس المحمّرة Fish and Ships، وهي وجبة شعبية في إنجلترا يُقال عنها "فيش آند شيبس".

في اليوم التالي، كانت رحلتنا المتنوّعة لرؤية معالم المنطقة؛ حيث كان هذا الإقليم في الماضي يشتهر بمناجم الفحم، وقد كانت قصة "الوادي الغاضب" لتشارلز ديكنز المقرَّرة علينا في الثانوية العامة، أحداثها تدور في هذه المنطقة، وتحكي عن حياة عمّال المناجم في نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وقد مررت بمساكن هذه العمّال ورأيتها، وكأن ديكنز قد رسمها بكلماته على الورق.

كما توجَّهنا لإحدى الغابات، وقد عَلِمت من فريد أن مِن آداب التجوُّل في الغابات إلقاء التحية على كل مَن تقع عليه عينك، وكأنها رسالة طمأنة يتبادلها الناس، وجدتُ نفسي أعود إلى دين الإسلام، وتعليمات الرسول عليه الصلاة والسلام لأتباعه بأن يُفشوا السلام؛ فلا بد أن هذه العادة قد أُخِذَت عنَّا نحن المسلمون. كما مررنا بأحد المناجم القديمة، ورأينا الآلات والقطبان، والسيارات التي تسير على القضبان وتُدفع باليد، كما رأينا الفوانيس والمعدّات المختلفة التي كانت تُستخدَم في استخراج الفحم في مطلع القرن المنصرم. وكانت زيارتنا التالية لأحد الأهوسة، والهويس عبارة عن حوض مائي ذي بوابتين يتوسّط نهرين ذَوَيْ ارتفاعين مختلفين؛ فعندما تنتقل اللنشات والسفن من المجرى الأعلى ماءً؛ فإن هذه القطع تدخل لهذا الحوض من أحد الأبواب ثم يُغلق الباب، فتنحصر بين البوابات، ويبدأ التفريغ حتى يُصبح الماء في ارتفاع المجرى الأقل ارتفاعا، ثم تنفتح البوابة الأمامية ويستمرّ السير.

وفي حالة العكس؛ فبعد استقرار القطع البحرية في الحوض؛ فإنه يُغلَق، ويزاد الماء بدفع كميات منه لرفع مستوى الماء حتى يصل إلى مستوى الماء في المجرى الآخر، ثم يُفتَح الباب ويستمرّ السير.

تناولنا الغداء المتأخِّر في مطعم تركي صغير؛ حيث قُدِّمت لنا أطباق شاورما الدونر **doner kabab**، وهي مِثل الشاورمة عندنا، ولكنها من اللحم الضأن الممزوج بالتوابل الخاصة، وهذه الأسياخ من الشاورمة تُجهَّز في مصنع يمتلكه أحد اللوردات من أصل باكستاني، وتُوزَّع على أنحاء بريطانيا. عدنا إلى المزرعة في نهاية اليوم بعد أن تجوَّلنا بين معالم هذا الإقليم العريق؛ حيث قمنا بتجهيز أنفسنا للمغادرة في الصباح الباكر من اليوم التالي. تناولنا

إفطارنا في السادسة صباحا، واستقلينا السيارة مُتجهين إلى مطار هيثرو Heathrow airport للعودة إلى مصر.

كان المطار أكبر من نظيره في فرنسا بشكل ملحوظ، يتكوَّن من أربع صالات رئيسية، يمرّ من تحته قطار الأنفاق؛ حيث يصل الصالات بعضها بعضا، هكذا عَلِمت خلال إقامتي في لندن فيما بعدُ.

ركبنا الطائرة التابعة للخطوط البريطانية، كانت الطائرة من الداخل ذات طابع خاص مستوحى من الحياة في بريطانيا، أُخبرنا من خلال الإذاعة الداخلية للطائرة أنه يوجد من بين طاقم الضيافة مَن يتحدَّث العربية لمن لا يعرف الإنجليزية، كما يوجد بين محطات الإذاعة الداخلية بالطائرة محطة للقرآن الكريم، وأخرى تُذيع أغنيات أم كلثوم طوال الرحلة.

تمتَّعنا برحلة هادئة كشكل الحياة في بريطانيا؛ حيث كان معظم الركاب من الإنجليز، هبطنا في مطار القاهرة في الموعد المقرّر تماما؛ فوجدتُ نفسي مرة أخرى بين أحضان الوطن. كانت سفري هذا إلى العالم الجديد تحوُّلا قد طرأ على حياتي في كل شيء، حتى أحسست أن حواري مع ولدي قد تغيَّر؛ فقد انخفض صوتي وأنا أُجادله، وأصبحت أكثر صبراً وتفاؤلاً لمستقبله في بلاد ما وراء البحار، وكنت كثيرا ما أستحضر صورة التوائم الإنجليزي على العبَّارة؛ فأزداد صبرا معه ويطول حديثنا بشكل ملحوظ.

ظلَّت إنجلترا بكل ما فيها من نظام ورتابة تحتلّ كل تفكيري عن مستقبلي ومستقبل نجلي، وبدأت أُرتِّب لرحلة اللاعودة.

كان فريد متحمِّسا للفكرة بنفس القدر، وقد أشار عليَّ أن أنهج نهج طارق بن زياد عند السفر؛ فإن تكسير الجسور بيني وبين مصر سيجعلني أكثر قدرة على تحمُّل ظروف قد تكون مُتعبة في بداية الطريق في بلاد الغربة. وكنت

على يقين أن رأي فريد فيه الصواب كله، وإن كان متطرِّفا بعض الشيء، ولكن عِشرتي له كانت تُؤكِّد لي أنه كان كثيرا ما يقسو على نفسه وعلى مَن حوله؛ من أجل نتائج قد تكون جيِّدة في النهاية.

وبدأنا في خطة السفر التي كانت لمدة ستة أشهر لترتيب كل التفاصيل هنا وهناك. لم يتوانَ أستاذي في تأهيلي نحو هذه الخطوة، وقد رتَّب لي سكنا هناك وعملا يُغطِّي تكاليف السكن، وباقي المصروفات اللازمة للمعيشة كما ذكر لي.

بعتُ سيارتي، ووكَّلت فريد في شئون الشقة التي أجَّرها بعد سفري، وكان ثمن السيارة القليل هو الاحتياطي الاستراتيجي لحياتي الجديدة، أما الإيجار الذي كان يُحصِّله فريد فقد كان مِثل "النواة اللي بتسند الزير" على حد قول جدتي.

وطــن جـديـد

حانت لحظة الرحيل؛ إذ سبقني فريد إلى لندن منذ يومين، وها أنا أتوجَّه إلى المطار مع نجلي في الصباح الباكر، وقد اختلطت المشاعر وتسابقت الأفكار متزاحمة حول رأسي، وكنت أطلّ من نافذة السيارة مودّعة وطنا لم أدرِ أنني قد أُنتزع منه إلا الآن.

شرد فكري بين ذكريات الماضي وآمال المستقبل، وكنت في لحظة ضعف لم أعرف مثلها قبل اليوم؛ فلم يكن عندي في يوم من الأيام ما أرتبط به أو أتعلَّق به، فلم أعلم معنى الملكية في حياتي تقريبا، وحتى السيارة التي كنت أمتلكها لم تكن تُعطيني هذا الإحساس؛ حيث إنني لم أشترِها، ولم يكن لي أي علاقة بالظروف التي أوجدتني أنا وهي سويًّا. لم أفِق من هواجسي إلا على صوت ختم رجل الجوازات، وقد نزل على جواز سفري؛ فعلمت أنه لا معنى لأفكاري وهواجسي، وأن عليَّ أن أطوي صفحة الماضي خلف ظهري، وأفكِّر في مستقبلنا القادم في بلاد الغرب أنا ونجلي.

كانت دموعي تنساب عندما ابتعدت عنِّي أرض المطار، وفي دقائق معدودات رأيت أهرام الجيزة وكأنها تُودِّعني إلى مستقبل مجهول، لم أدرِ أدموعي هذه لوعةً وشوْقا إلى الأرض التي أتركها، أم هي خوف وتوجُّس من المجهول

القادم؟؟ ولكن الله أرسل إليَّ أسرة هندية تركب إلى جواري، وقد عَلِمت أنهم من الجيل الأوَّل للهجرة؛ حيث حضر ربُّ الأسرة إلى لندن منذ عشرين عاما، والآن هم عائدون من رحلة سياحية إلى مصر بعد أن أصبح الرجل ميسورا بفضل عمله في صناعة النسيج بمدينة مانشستر (Manchester)، وكأنَّ الله أراد أن يبثَّ طمأنة في قلبي.

وما أن بدأت الطائرة في الهبوط حتى اخترقت طبقة سميكة من السحب، كانت الطائرة تهتزّ والضوء يخفت، حتى بدأت الأرض تظهر من تحتنا، وقد حجبت الغيوم الثقيلة إضاءة الشمس؛ فكان شكل الجو كأنه عند أذان المغرب عندنا، وهو ما أضفى على اضطرابي النفسي بُعدا آخر، بفعل هذه الغيوم الثقيلة التي لم أكُن معتادة عليها، ولم أرَها بهذه الشدة والكثافة في رحلتي الاستكشافية منذ أشهر حيث كان الوقت صيفا. هبطت الطائرة وسط حركة الطائرات الكثيرة حولنا، بدأنا في الخروج إلى صالات المطار، كان الجو شديد البرودة عند باب الطائرة المؤدِّي إلى الأنبوب بالمطار، وكان المطرُ غزيرا، هكذا كان يبدو من شبابيك الطائرة.

اطَّلع موظف الجوازات على جوازي، وقد أضفت نجلي عليه، كان معي حجز في الفندق الذي يمتلكه ماهر صديق فريد، وختم لي الختم التقليدي الذي يسمح ببقائي ستة أشهر بالمملكة المتحدة.

تسلَّمت أمتعتي وخرجت إلى حضن فريد الذي كان ينتظرني لدى مكان الخروج، وما أن ضمَّني إليه حتى أحسست كأنني أُلمِلم نفسي بين جوانحي من جديد، لم أرغب في أن يُبعدني من بين أحضانه، ورحت أبكي بكاء الأطفال متلّعقة به ومقبلة كل أجزاء وجهه، وكأنني لم أرَه منذ أعوام، كان هذا المنظر غريبا في المطار، ولكني لم أكُن أعبأ بأحد، فلم أكن أحضن حبيبي فقط، ولكن كنت أحضن وطني وبلدي بكل الماضي والذكريات.

جلسنا بُرهة في صالة الانتظار حتى هدأت، وكان نجلي ينظر لي في تعجُب؛ حيث كنَّا نربت على كتفه بين الحين والحين حتى لا ينزعج لنحيب أمه. وبدأ مرشدي تعليماته من جديد؛ حيث إن عليَّ التوجُّه إلى قطارات الأنفاق وقطع تذكرة اليوم الواحد، وهي تصلح لجميع المواصلات داخل لندن لمدة يوم واحد، ويطلق عليها وان داي ترافيل كارت، فتتبعت العلامات الإرشادية الدالة على محطة قطارات الأنفاق، وتوجَّهت إلى شباك التذاكر؛ حيث وقفت في الصف حتى أتى دوري، فتحدَّثت إلى الرجل خلف الزجاج عبر ميكروفون وسمَّاعة، وأعطيته ورقة ذات العشرين جنيها من فتحة صغيرة أسفل الزجاج الفاصل بيننا، وأعاد إليَّ الباقي مع التذكرة، وأضاف إليها الخريطة طبقا لطلبي.

ركبنا القطار الواقف بالمحطة، وقد وضعنا الحقائب في المكان المخصَّص لها بجوار أبواب القطار وجلسنا في مقاعدنا، أخبرني فريد بأنه علينا النزول في محطة تُسمَّى إيرلس كورت Earl s court، وأشار إليَّ أن أقف لأرى المحطات، وقد رسم خط السير مكتوبا عليه أسماء المحطات أعلى شبابيك القطار، تتبَّعت خط السير حتى وقعت عيناي على اسم المحطة المطلوبة، كما صرت أتأمَّل الخريطة التي حصلت عليها من البيه الذي قطع لي التذكرة.

كان نظام الدخول إلى مكان القطارات يقضي بأن يضع الراكب التذكرة في مكانها ببوابات أتوماتيكية تنفتح وتخرج التذكرة حتى يلتقطها الراكب؛ لاستعمالها لدى الخروج أو استعمالها في مرات أخرى طبقا لطبيعتها. استغرقت الرحلة أكثر من الساعة بقليل، نزلنا إلى المحطة وركبنا تاكسي أوصلنا إلى المنزل في أقل من ثلاث دقائق.

كانت الشقة في الدور الأول في مبنى يتكوَّن من عدد من الشقق في كل دور، وهذه المباني تُسمَّى تراس هنا، تقع الشقة في شارع كروموِيل رود Cromwell

(Road)، وهو من الشوارع الرئيسية المهمة في لندن، كانت تسمية الشارع لديّ معضلة أخرى؛ فكيف تسمح السلطات في أهم وأعرق مملكة في الدنيا أن يطلق اسم الرجل الذي أعلنها جمهورية، على أنها ارتدت وعادت إلى الملكية وبقيت على هذا الحال، هكذا عَلِمت مؤخرا.. رُحت أقارن بين ما يحدث عندنا وما فعله الإنجليز من تخليد ذكرى رجل أطاح بالعرش البريطاني، ولكنه فشل في الاستمرار، فعندنا مثلا لم نسمع عن محمد نجيب الأب الشرعي لثورة يوليو وأوّل رئيس لمصر، إلا من خلال حكايات متواترة بدأت تنتشر أخيرا، بعد أن محى جمال عبد الناصر اسمه من أي كتاب أو مَعْلَم، كما مُحيت أسماء أسرة محمد علي مِن على أي شيء كانت قد ارتبطت به. بل ذهب المصريون إلى أكثر من ذلك؛ حيث تخلَّصوا من تمثال لفرديناند ديلسبس كان قد نُصب في مدخل قناة السويس عند بورسعيد، وألقوه في مياه القناة، وكأن ذلك سيُغيّر التاريخ وينسب حفر قناة السويس إلى أحد غيره.

فيبدو أن هذه العادة هي مِن العادات القديمة والموروثة من الفراعنة؛ فقد كان الفرعون الجديد يمحو أثر سلفه على جدران الكثير من المعابد.

تركنا فريد في الشقة الصغيرة المكوَّنة من غرفة نوم وصالة للمعيشة تحوي طاولة للطعام ومطبخا وحماما صغيرَيْن جدًّا، لم تكن احتياجاتي أكثر من مكوِنات وحجم الشقة.

بدأت أُرتّب أحوالي وأضع ملابسي في الدولاب، وانتهيت من ترتيب الأغراض، ووضعت حقيبتَيْنا بداخل بعضهما تحت السرير حتى لا ينقص حجم الفراغ في الغرفة الضيّقة، وأصلحت أحوال ملابس فريد وحقيبته، وكان عمر قد نام على كنبة في الصالة، بينما كنت أتنقَّل بين أرجاء المنزل الصغير. واستيقظتُ لأجد فريد نائما بجواري فتركته يكمل إغفاءته، وخرجت إلى

حيث أيقظت ولدي، ورحت أتحدَّث معه حول الرحلة والطائرة والقطار، وما نحن فيه من مظاهر جديدة.

استيقظ فريد، وخرجنا إلى الشارع، كان الليل قد خيَّم سريعا علينا، المطر كان شديدا، والبرد لم أكُن رأيت مثله من قبل، ركبنا الأتوبيس من محطة لا تبعد عن شقتي سوى خطوات إلى محطة همرسميث، لم تكن تبعد عنَّا كثيرا فهي أقرب المناطق التجارية إلينا؛ فيوجد هناك هاي ستريت High Street، وهو شارع يتواجد بين مناطق السكن توجد به المحال والأنشطة المختلفة، كما يوجد بالميدان فرع ليودز بنك وبجواره مطعم لأتراك يعرفهم فريد جيِّدا، وقد تناولنا عشاءنا هناك.

وعند خروجنا للشارع مرة أخرى، أشار إلى مجموعة المحال الواقعة في الهاي ستريت، وقد تنوَّعت بين بيع الملابس والأحذية والأدوات الكهربائية، كما توجد أيضا صيدلية كبيرة وهي أحد فروع بوتس Boots أشهر سلسلة صيدليات في إنجلترا.

اشترينا خزين المنزل من السوبر ماركت، وعدنا إلى المحطة الرئيسية للأتوبيس أعلى محطة قطار الأنفاق، لنعود للمنزل من جديد. كانت الشقة دافئة؛ حيث إن هناك نظاما مركزيًّا للتدفئة بجميع المنازل، ولم يبقَ على فطامي من فريد سوى ليلتَيْن.

نام ولدي، وأوينا إلى الفراش، وانساب بيننا حديث المواساة الذي لم تنطق فيه شفاهنا ببِنت كلمة، كانت مشاعري نحوه متأجّجة، وأنفاسي متلاحقة، وكنت أضمّه إليَّ ضمَّات لم أعرفها قبل هذه الليلة؛ فكان يحتويني ويملأني ويُطمئنني، كان في هذه الليلة رجلا رائعا، وددتُ لو أن أقضي باقي عمري بجواره، وكنت أتخيَّل نَفسي بعد غدٍ وقد تركني الأب والزوج والحبيب. نعم

هو كل مالي في هذه الدنيا. هل هذه غريزة الأمومة التي جعلتني أُودِعه للأبد من أجل مستقبل نجلي في هذه البلاد. أم هو استكبار على النعمة التي أنعمها عليَّ خالقي الكريم عزَّ وجلَّ؟

كانت هذه الليلة ليست كباقي الليالي، فلم نرغب في أن ننهي ما نحن فيه، وكأنه هو أيضا يُودِّع عامين كنت له فيهما جارية مُخلصة، وحبيبة وفيَّة، تفنَّنت في أن أجعل في حضني السكن والمودة له كلما أوى إليَّ.

وفي الصباح، كان علينا التخلِّي عن مشاعرنا لمواجهة الواقع؛ فسوف يرحل سَنَدي غدا. خرجنا إلى الشارع ثلاثتنا بعد الإفطار، وتوجَّهنا لمحطة قطار الأنفاق سَيْرا على الأقدام؛ حيث إنها لا تبعد عن المنزل سوى عشر دقائق، كنَّا نستظلّ فيها من المطر منذ أن خرجنا من المنزل حتى المحطة بالشماسي التي أصبحت لا تُفارقني.

قطعتُ اشتراكا للمواصلات يغطِّي المنطقة الأولى والثانية لمدة أسبوع بناءً على توصية فريد، وانطلقنا نحو محطة كنجز كروس Kings cross؛ حيث يوجد فندق ماهر الذي كان على موعد معنا هناك. مررنا على حضانة بين الفندق والمحطة، وتعرَّفت على السيِّدة المديرة الأيرلندية الأصل، واطَّلعنا على كل المعلومات حول الحضانة، وتركت عمر هناك؛ حيث أقبل على الألعاب في سرعة لافتة، وكأنه لا يرغب في أن يُضيف إلى أعبائي عبئا جديدا. وفي مكتب صغير أنيق خلف الرسبشن جلسنا مع ماهر نصف ساعة، وكان حديثنا صريحا جدًّا، وجّه إلينا فيه فريد الكلام.

- طبعا الست دي مش سايبه مصر علشان تشتغل مُشرفة غرف هنا في لندن.. وأومأت له بالموافقة على ما يقول.

- لكن دي مجرَّد بداية وعليكي تطوير نفسك حسب ما يستجد قدامك.

واستكمل ماهر:

- أنا مش هازعل لمّا تقولي إنك هتسيبي الشغل علشان لقيتي فرصة أحسن.

وكان دوري في الحديث:

- مستر ماهر.. أنا مُتشكِّرة على الفرصة دي، وأنا جاية هنا علشان أعيش أنا ونجلي في مستوى أحسن من مصر بمجهودي وعملي.

- وأنا أيضا حضرت إلى هنا لنفس السبب.

قدَّمني لموظفة الاستقبال، وكذلك عامل الحقائب المصري الذي سلَّم فريد لفافة بها خطاب وشريط كاسيت؛ لتسليمها لأقاربه بريف مصر. خرجنا من جديد لنستكمل الإرشادات. كان دائما فريد يتأخَّر عنِّي حتى أتجرَّأ على اختيار وسيلة المواصلات المناسبة، ثم لكي أدعوه إلى النزول في المحطة المقرَّرة.

قضينا نهارنا بين تساؤلاتي وردوده، دفع لي فريد إيجار الشقة لمدة شهرَيْن، وأخبرني أن التليفون المحمول الذي معه قد اشتراه من أجلي، وأنه سوف يتركه لي حين سفره في الغد، وأنني سوف أحصل على مرتبي أسبوعيًّا، وأن عليَّ أن أُدبِّر أحوالي، كما صحبني لفتح حساب في البنك أودعت به ما لديَّ من مال. لم يكن تدبير معيشتي جديدا عليَّ؛ فقد قضيت أياما كثيرة في مصر أدبق في هذا وأختصر ذلك، وكانت ورقة مصروف المنزل هي أهم ورقة في حياتي بعد قَسيمة زواجي من المرحوم زوجي السابق.

وبنهاية جولتي وأسئلتي واستفساراتي، عدنا لنأخذ عمر ونعود إلى المنزل من جديد. جهَّزت لفريد حقيبته، كما جهَّزت العشاء، وكنت أستحضر وأنا أعدّه لوحة العشاء الأخير الشهيرة، كنت مضطربة ومتلعثمة، وهو ما أدَّى إلى

وقوع كوب من الزجاج على الأرض وكسر، وكأن علاقتي بفريد هي التي كُسِرت.

- كفاية توتَر بقى.. والله الأيام اللي جاية هتبقى أحلى بكتير.

- هتوحشني يا عُمري.. مش متخيِّلة إني هاعيش بعيد عنك.

- خمس ساعات طيران مش كتير.

وكانت ليلتنا كسابقتها، وإن زاد عليها دموعي التي كانت تبلّل وجنتينا المتلاصقتين، وشفتانا اللتان احتوت كل منهما الأخرى طوال الليل.

أفاق فريد عليَّ وأنا أرتدي ملابسي.

- على فين بدري كده؟

- رايحة أودِّي عمر الحضانة.

- ما تسيبيه النهارده؟

- مش عايزاه يُشوفني وأنا باودَّعك.

- طب قبل ما تخرجوا إندهيله علشان أسلِّم عليه.

كانت عيناي تتحاشى النظر إلى فريد، وكنت أتحدَّث إليه وأنا أنظر في ناحية أخرى، ضمّ فريد ولدي ضمَّة أب حنون، وراح يُوصيه عليَّ، وقال له إنه أصبح رجلا عليه الاهتمام بشئون أمِّه؛ فهو ذو الأربعة أعوام لم يعد صغيرا بعدُ، وكان عمر يُومئ برأسه وكأنه يدري ويعقل ما يسمعه من فريد. وعدت إلى المنزل حيث كان فريد لا يزال نائما؛ فنزعت عنِّي ملابسي، وارتميت عارية بجواره، وأخذت أبكي من جديد.

- ليه سيبتني آجي هنا؟ أنا كنت عايشة كويس في مصر معاك.

وكانت أسئلتي تتردَّد بانفعال واضح، ولكنه أغلق فمي بيده، وقبض شعري بيده الأخرى، وضمني إليه ولم يتركني إلا وأنا كخِرَقة من القماش البالي.

عَلِمت بأنني ذهبت بعمر إلى الحضانة من أجل هذا الوداع الحار. استعدّ فريد للمغادرة، وألححت عليه أن أصطحبه للمطار، ولكنه رفض بصرامة أعرفها فيه جيِّدا، وقبل أن يُغادر أجلسني على رجلَيه وضمَّني إليه.

- أنا كنت باعتبر علاقتنا بأنها زواج حقيقي لذلك أنا باعفيكي..

لم يُكمل كلماته؛ حيث وضعت يدي على فمه.

- مش عايزة أسمع كلام زي ده، وإلا هتلاقيني عندك بكره في مصر.

انتزع فريد نفسه بصعوبة من بين أحضاني، ونزل إلى الشارع، وقفتُ في الشباك أرقبه وألوح له بإحدى يديّ، وأمسح دموعي باليد الأخرى، حتى اختفى عنِّي. كان الوداع ثقيلا، فالفراق صعب؛ فهذا الرجل حوَّل حياتي في عامين إلى ما لم أكُن أحلم به، والآن جاء الدور عليَّ؛ فهل أنجح في حياتي الجديدة بعد أن يتركني وحدي؟ ورحت أستحضر السيدة هاجر عندما تركها زوجها أبو الأنبياء إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- مع وليدها إسماعيل في وادٍ مُجدِب؛ فكان عليها السعي وعلى الله التوفيق، ظلّ هذا المثل نبراسا لحياتي الجديدة هنا في بريطانيا، وإن كان الفارقُ شاسعا بين السيدة هاجر وبيني؛ فهي زوجة نبي وأم نبي؛ أما أنا فإنني من عامة خلق الله الخطَّائين، وكذلك فريد أيضا، وكنت كثيرا ما ألقي همومي على الله، بعد أن أكون أديت دوري في السعي والاجتهاد.

واصلتُ حياتي بين عملي في الفندق واندماجي مع ولدي في المجتمع الجديد؛ فقد كان عملي يبدأ في السابعة صباحا؛ حيث أتأكَّد من سير الأمور جيِّدا في مطعم الإفطار، ثمَّ الإشراف على الغرف، وذلك يتطلَّب أن تُعطيني لندا -موظفة الاستقبال- ست غرف انتهت إقامة نزلائها، وأخرى التي يستمرّ النزلاء لليلة أخرى فيها؛ فكان عليَّ توجيه طقم العناية بالغرف house keeping لتنظيف الغرف التي غادرها قاطنوها دون عودة، يُضاف إلى التنظيف تغيير

أطقم السراير وزجاجات الشامبو والصابون وورق التواليت، مع مراجعة أي شكاوى بالغرف بخصوص الصيانة، وبذلك تكون الغرفة جاهزة لاستقبال ضيف جديد، كما كنت أصطحب السكان الجدد إلى غرفهم إذا تطلَّب الأمر ذلك، كما أن دورة غسيل البشاكير والفوط والمفروشات ومراجعة المخازن بخصوصها كان أيضا من اختصاصي. كنت أُغادر عملي في الثالثة، وكانت إجازتي يومَيْن في الأسبوع؛ حيث كان زملائي في الفندق وأنا نتبادل المسئوليات أيام الإجازات.

كانت حياتي رتيبة، ولكني كُنت أُحاول تثبيت نَفسي في مجتمعي الجديد؛ فكانت لغتي تتحسَّن بالممارسة، وأصبحت أُضيف إلى كلماتي الكلمات الإنجليزية التي تجعل الحوار أكثر أدبا؛ مثل: "لو ماكنش عندك مانع" و"لو سمحت" و"لو تستطيع"، بالإضافة إلى "بليز" التي ينطقونها كثيرا وكأنهم يشحذون.

وفي إحدى الليالي في الأسبوع الثاني من إقامتي، دقّ جرس الباب في العاشرة مساءً، وعندما فتحتُ وجدتُ سيّدة في العقد السادس من العمر، وقد عرّفتني أنها المسئولة عن إدارة المنزل الذي أقطنه؛ فدعوتها للدخول؛ فجلست في الصالة حيث كان التليفزيون مفتوحا، وقدَّمتُ إليها كوبا من الشاي وقطعة من الكيك، وبعد أن رحَّبت بي كساكنة جديدة، وشكرتني على ترحيبي بها دون معرفة سابقة، راحت السيدة تتكلَّم عن التغيُّر الذي طرأ على الحياة في السنوات الأخيرة، وكذلك عن ضغوط الحياة، وأن الناس هنا يبدأون عملهم مبكِّرا، ويعودون إلى منازلهم حيث الراحة والسكون، وأن الأوضاع الاقتصادية لم تعد على ما يُرام بعدُ، حتى إن نوع مواد البناء والطوب المستخدَم الآن في البناء أقلّ جودة مِن ذلك الذي كانت البيوت تُبنى به في العصر الفيكتوري المنصرم، وأن هذا الطوب وهذه المواد لم تعد

كافية لعزل الصوت جيّدا؛ فينتقل الصوت من خلال هذه المواد إلى الشقق المجاورة، وعند ذلك قُمت وخفضت صوت التليفزيون، وتعلّمت درسا في كيفية أن الإنجليز يبلغون رسائلهم في غلاف من الشياكة والأدب.

تذكَّرتُ أنني في صباي قد صحبت أمي إلى مصيف جمصة لنمضي يومَيْن عند إحدى قريباتها، وقد كانت الأصوات عالية في الشقق المتجاورة، وكان يوجد أحد الجيران يخرج صارخا عندما يستبدّ به الأرق؛ قائلا:

- وطّوا صوتكم.. الله يخرب بيوتكم !!

بهذه الصراحة والوضوح كانت الأمور تسير عندنا؛ أمّا هنا فالوضع أكثر دقة وتعقيدا.

مرّت الأيام وازداد إتقاني لعملي، وأصبحت أُديره بحرفية أكثر ووقت أقل، ودخل الربيع حيث أصبح النهار أكثر طولا، وبدأت الشمس تزورنا على استحياء، وزاد تواجد العرب في الشوارع، وخفت وطأة الصقيع في الصباح الباكر. كان دخلي من عملي يكفيني أنا ونجلي لعيشة كريمة مع قليل من التوفير، كانت تليفونات فريد تُشجّعني وتشدّ من أزري، أحسست أنه حان الوقت لأن أُزيد دخلي بعمل آخر أو أغيّر عملي إلى عمل آخر يدرّ دخلا أكبر.

توجَّهت إلى محال هارودز العريقة Harrods التي تقع في محطة نايس بردج Knightsbridge، ولم أكُن قد رأيتها من قبل؛ فالمبنى العريق يحتلّ حوالى أربعة أفدنة في أكثر مناطق لندن رقيًّا، تقف أمامه عربة ذات حصانَيْن، عليها براميل قديمة وقد كتب عليها اسم المحل العريق؛ حيث كان في الماضي يوزّع البقالة والمشروبات، وكان النبيذ يخزَّن في هذه البراميل. توجد لافتة على الباب الرئيسي تُعلن أن هذا المحل من مورّدي القصور الملكية، أو أن أفراد العائلة المالكة يتسوَّقون من هذا المحل.

المحل من الخارج يُعتبر تحفة معمارية بكل التقديرات، ويتكوَّن من سبعة أدوار، أحدها الأرضي، وآخران تحته، والباقي فوق الأرض، يمتلك هذا المحل ثري مصري يُدعَى "محمد الفايد"، وقد حرق قلب الإنجليز أن المحل أصبح في قبضته بعد أن استحوذ على أسهمه. دخلتُ المحل ومررت بقِسم الطعام؛ حيث يُباع الجبن واللحم والسمك والحلويات والمشروبات الروحية... وما إلى ذلك، كما توجد كافتيريا بجوار هذا القِسم، يُمكن للزائر تناول المأكوت الخفيفة والحلويات بالإضافة إلى المشروبات.

تجوَّلت في أقسام المحل المختلفة؛ حيث كانت الأسعار غالية والبضاعة رفيعة الذوق والجودة، وكان السقف الأوسط للمحل قد صُمِّم بطابع فرعوني امتدَّ إلى أجزاء كثيرة من المحل الكبير. وأخيرا توجَّهت إلى هدفي، وهو قِسم مستحضرات التجميل، وعند ربون لوريال L'oréal توقَّفت أتأمَّل كيف أخطو خطوتي إليهم.

كانت هناك سيدتان من الخليج قد تقدَّمتا لشراء بعض المستحضرات، رأيت أنهما لا تعرفان الإنجليزية؛ حيث كان الارتباك واضحا على وجه البائعة وكذلك خَيْبة الأمل؛ حيث إن الأجور في هذه الأقسام تزيد كثيرا عند زيادة المبيعات، فعَلِمتُ أن لحظة الانقضاض قد حانت، تقدَّمت نحوهن، وبترجمة بعض الكلمات بين الطرفين أحسَّ الجميع بارتياح، لم يقتصر دوري على الترجمة فقط، بل انضممت إلى البائعة في عرض كثير مما لديها، ورحت أضع المساحيق على وجهي للتجربة؛ حيث بشرتي التي تقترب من لون بشرتيهما، وقد طمأنت البائعة أنني لديَّ وقت لكي أساعدها على إتمام صفقة جيِّدة مع السيدتين، وبالفعل اشترت السيدتان كمية كبيرة من المستحضرات والعطور، وطلبتا منِّي التجوُّل معهما في المحل لتسهيل عملية شرائهما لبعض المشتريات، وعندما استمهلتني البائعة حتى تُعطيني من

بعض العيّنات لديها. قلت لها إنني سوف أتجوّل معهما لشراء بعض الحاجيات: فقالت لي بأن أجمع جميع الحاجيات والمشتريات، ثم أحضر إلى الكاشير المجاور لها للدفع مرة واحدة، وسوف يكون لي نوع من الجائزة طبقا لقيمة المشتريات.

وبين الأحذية ذات الترتر والفصوص وفساتين السهرة والملابس الداخلية ذات الألوان الفاقعة كانت اختياراتهما. ثمّ نزلنا إلى الدور الأرضي إلى الكاشير طبقا لتوجيهات البائعة التي سبقتني إلى زميلتها على الكاشير، وأسرت إليها بكلمات أشارت إليّ خلالها. وراحت مسئولة الكاشير في تعريض التكيت للماكينة لأخذ الثمن، ثم رفع الجزء المغناطيسي من على القطع، والذي يدلّ رفعه على أن هذه القطعة قد تمّ دفع ثمنها. ثم تُعيد تطبيقها وتضعها في حقيبة المحل الخضراء الشهيرة. كانت الأرقام تتتابع سريعا، والمبالغ أصبحت كبيرة حتى انتهى المبلغ إلى سبعة آلاف من الجنيهات الإسترلينية لإحداهما، وخمسة آلاف وقليل للسيدة الأخرى؛ فأخرجت كل منهما بطاقة ائتمان بلاتينية ودفعتا، وودّعتهما لدى الباب، وقد أخذتا رقم تليفوني المحمول وشكراني على وقتي وطيبتي وذوقي في اختيار بعض حاجياتهما. في الحقيقة لم يكن هذا ذوقي، ولكني كنت أرى عيونهما تلمع عند رؤية المزركشات والأشياء ذات التفاصيل الكثيرة؛ فكنتُ أُشير إليهما بها؛ فكان اختياري لهما يؤكّد رغبتهما فكانتا تشتريانه.

عدت إلى البائعة سويني التي تركتني ودخلت إلى أحد مكاتب الإدارة، وقد علمت منها بعد ذلك أنها أخبرتهما عمّا كان مني، وقد أخذت نسخة من المبيعات من الكاشير، وعادت إلى قسيمة شراء (Voucher) تحوي ١٢٠ جنيها، وأعطتني حقيبة بها بعض العطور ومستحضرات التجميل، وشكرتني على أنني لولاي ما كانت تستطيع أن تتمّ هذه الصفقة الجيّدة. عرضتُ عليها

أن أحضر بصفة يومية، وأبرزت لها كارت مدام ديمونيك التي كنت حصلت عليه في جالوري لافاييت في (Gallerie Lafayette) باريس.

فما أن رأت الكارت حتى قالت في استغراب:

- أو.. مدام ديمونيك !!!....

- wait a minute.. أي انتظري دقيقة.

انتظرتُ وأنا أعلم ما كُتب بالفرنسية خلف الكارت، ذلك أنني أصلح لأن أكون موديلا لعرض منتجات الماكياج. عادت سويني وقد تهلّل وجهها، وأخبرتني أنها ستكون سعيدة إذ إنني سوف ألازمها، وأحلّ لها معضلة العرب غير الناطقين بالإنجليزية التي كثيرا ما تشعر بالإحباط عندما تفشل في أن تصل إليهم بلغة الإشارة، وأن عليَّ الحضور في صباح بعد الغد للتعاقد على العمل.

أخبرتها بأنني أرغب في العمل من الثالثة ظهرا حتى موعد إغلاق المحل؛ حيث إن العمل يستمرّ إلى السادسة ما عدا يومين فيمتدُّ إلى الثامنة، وأقنعتها أن السيدات العربيات لا يستيقظن مبكِّرا، وأن الثالثة ظهرا بداية للعمل تتناسب مع طبيعة عملي، وأضافت إليَّ سويني أنه في حالة وجود زبائن من الناطقين بالعربية ولا يعلمون الإنجليزية؛ فسوف يُسمَح لي بترك الربون واصطحابهم إلى باقي أجزاء المحل. كان هذا الاتفاق أوّل نصر لي أحرزه بمفردي؛ فقد كان عملي بالفندق بتوصية مِن فريد، أما هذا العمل فبدايته ونهايته عندي، كان قلبي يدقّ فرحة بإنجازي طوال الطريق إلى حضانة عمر الذي استقبلته بين أحضاني، وصرت أتحدّث إليه عن نجاحي، وأن الأيام القادمة ستكون أفضل كثيرا، تكوَّنت عندي ثقة في نفسي، وراحت تزداد مع احتكاكي بالمجتمع هنا بشكل كبير.

ألحَّت عليَّ الرغبة في أن أتحدَّث إلى فريد؛ فطلبته في تليفون سيارته أكثر من مرة فلم يكن فيها، ولم يكن المحمول قد دخل إلى مصر بعدُ. ونمت ليلة قلقة مستبشرة بغدٍ أفضل لي ولولدي. عاودت في صباح اليوم التالي محاولات الاتصال بسيارة فريد منذ أن استيقظت لعله يكون مستيقظا وخارجا مبكِّرا لأي سبب، وكأنني ابنٌ أراد أن يُخبِر أباه بنجاحه وتخرّجه في الجامعة.

نعم.. أنا الآن فقط تخرَّجت، وأصبح عندي القدرة على كسب قوتي، لم يتسرَّب إليَّ هذا الشعور عند تخرُّجي في الكلية؛ فقد كان عليَّ أن أدخل معارك أخرى حتى أصل لتحقيق حد الكفاف من شهادتي، كان الزملاء المحظوظون من أبناء الأساتذة تحجز لهم النيابات والبعثات والمنح، بل وكانت تُكتَب لهم رسائل الترقي، ولم يكن مَن مِثلي بقادر على الصبر سنوات عديدة حتى يُحقِّق ما يجعله آمنا على يومه ومستقبله من عمله بشهادته التي حصل عليها بعد سنوات كثيرة من المذاكرة والمعاناة.

نعم أنا اليوم نجحت وتخرَّجت، وعليَّ إخبار أبي فريد، وما انفككت أطلبه تِباعا حتى أتاني رنين التليفون الذي يُنبئ بوجود أحد بالسيارة، وتزامنت دقات قلبي مع دقات التليفون القليلة، وأخيرا.

- صباح الخير يا عمري.
- أهلا يا حبيبتي.. إنتي كويسة؟
- آه.
- عمر كويس؟
- الحمد لله بخير.
- طلباني بدري كده ليه؟
- عشان أطمّنك يا حبيبي، أنا رفعت راسك ونجحت في الامتحان.

- امتحان إيه؟

ورحتُ أقص له ما حدث أمس، وكيف أنني شاكرة لكل ما فعله من أجلي، ووعدته أنني سأكون شاكرة مخلصة له ما بَقِي من عمري.

قابلت مستر ماهر وأخبرته ما حدث بالأمس، واستأذنته في الحضور غدا في الواحدة ظهرا بدلا من السابعة، وكذلك طلبتُ منه تخفيض ساعات عملي لنصف ساعة لأنصرف في الثانية والنصف بدلا من الثالثة لأكون في هارودز في الثالثة، مع تعهدي بألا يقلّ مستوى العمل عمّا أقوم به الآن؛ فوافق وشجّعني وتمنّى لي حظا سعيدا في عملي الجديد، وتنبّأ لي أنني سوف أترك العمل لديه سريعا، وهذا ما كان.

عدت إلى المنزل بعد أن تسوّقت احتياجاتي؛ حيث إن الأيام القادمة ستقلّ ساعات الفراغ فيها، وكان عليّ أن أنقل عمر إلى حضانة بجوار المنزل قدر الإمكان؛ حيث إن ذلك أنسب، بعد أن أصبحت أعمل في مكانين متباعدين.
رنّ جرس الموبايل في العاشرة والنصف وكان عمر قد نام.

- كيفك أخت وفاء؟

إذا بالمتحدّثة إحدى السيدتين اللتين قابلتهما أمس بهارودز، أخبرتني المتحدّثة أن أحد الأبناء قد ارتفعت درجة حرارته، وهما والخادمة لا يعرفْنَ أحدا، فقد غادر الأزواج إلى أمريكا وتركاهما، وهي لا تعلم كيف تتصرّف؛ فأخبرتها أنني طبيبة وأنني سوف أحضر إليها للوقوف على الأمر والتصرُّف في الحال. تركتُ نجلي نائما، وأخذت تاكسي إلى بيزووتر؛ حيث إقامتهما بعمارة رولف كورت في نهاية الشارع إلى اليمين. فتحتا لي الباب من الإنتركم، ودخلتُ إلى الشقة، وكان الولد في الشهر السادس، وقد أحضرت معي

السمَّاعة والترمومتر وكشفت عليه؛ حيث استحضرت الاستقبال في مستشفى أبو الريش؛ فقد عَمِلت لمدة عامين هناك قبل أن أحضر إلى هنا. كانت حرارته ٣٩، وقد لاحظت صوتا غير عادي وأنا أسمع قلب الطفل؛ فأعدت الاستماع بدقة أكثر حتى تيقَّنت أن هناك شيئا غير عادي في قلب الطفل، ولكن هذا ليس موضوعنا الآن فعلينا خفض الحرارة أولا.

أخرجت الثلج الموجود بالثلاجة، ووضعته في إناء بمساعدة السيدتين والخادمة، ووضعت فوطتَيْن صغيرتَيْن فيه، وأمرت أمّه بأن تُبدِّل عليه الكمّادات الباردة، وأبلغتهما أنني سأنزل إلى الصيدلية القريبة في كوينزواي (Queensway) لإحضار ما يلزم.

توجَّهت إلى الصيدلية، وكان هادي الصيدلي السوداني قد تعرَّفتُ عليه منذ شهر، أعطاني خافض حرارة وكمَّادات وشكرته؛ حيث إن الأدوية هنا في بريطانيا لا تُصرَف إلا بروشته، ولكنه يعلم أنني طبيبة، وهو إنسان متعاونٍ ولطيف إلى أقصى حد. عدتُ إليهما مرة أخرى، وقد حقنت الطفل بخافض الحرارة، وأعطيتهما الكمّادات، وبقيت ساعة مع الطفل حتى هدأت الحرارة نوعا ما، ووعدتهما بزيارتهما في صباح اليوم التالي. حاولت السيدة أن تُعطيني أجري أو ثمن الدواء ولكني اعتذرت، وقلت لها ليس من أجل ذلك حضرت؛ فنحن نساء أغراب، وكان واجبا عليَّ أن أحضر للمساعدة.

في الصباح بعد أن أوصلتُ عمر إلى الحضانة وقد تأخَّرت ساعتين حتى أذهب إلى موعدي في هارودز مباشرة؛ حيث قابلت السيد/ جاكوبيني، وهو إيطالي طويل القامة ذو أنف مدبَّب وعينان جاحظتان وأذنان كبيرتان، كان شديد الأناقة والإعجاب بنفسه، كان يرتدي جاكيت أبيض وبنطلونا أسود

وبابيون، وكأنه أطلّ علينا من أوائل القرن الماضي. دار بيننا حديث سريع أفادني بأن تأشيرة السياحة التي دخلتُ بها إلى هنا لا تسمح لي بالعمل، غير أنه سوف تكون هناك علاقة تدريب بيننا؛ حتى يتمّ ترتيب الأمر خلال الشهرين وبضعة الأيام الباقية لي في إقامتي التي حصلت عليها عند الدخول لبريطانيا.

ثم تحوّلنا للحديث عن مواعيد العمل والمرتَّب وحوافز البيع في القِسم وخارج القِسم، كانت الأرقام مُبشِّرة؛ حيث كان المرتَّب يفوق ما أحصل عليه من الفندق بقليل، بالإضافة إلى عمولة البيع المتوقَّعة في قِسم الماكياج، أو من باقي أقسام المحل. واستمهلت الرجل ثلاثة أيام حتى أبدأ العمل أوَّل الأسبوع، وانصرفت من المحل بعد أن مررت على سويني لإلقاء التحية، وإخبارها بأنني سوف أكون معها من أوَّل الأسبوع المقبل.

طَلَبتُ أم فواز -الطفل المريض- للاطمئنان عليه؛ فأخبرتني بأنه أفضل كثيرا من أمس، وأبلغتها أنني في الطريق إليها. رأيت فواز قد انخفضت حرارته فسمعت قلبه من جديد؛ حيث تأكَّدت شكوكي من وجود صوت غير عادي، كما لاحظت زرقة في شفتَيْه وأظافره، وهو ما يدلّ على نقص الأكسجين الواصل لأطرافه. سألت والدته عن صحته منذ ولادته؛ فأفادتني بأنه شديد الحساسية وكثير التعرّض لمشكلات صحية، بالإضافة إلى تأخُّر نموّه بالمقارنة لأقرانه. فأخبرتها برغبتي في عرضه على د. مجدي جرَّاح القلب الشهير؛ فانزعجت، ولكني طمأنتها بأنني سوف أُرتّب له بعض الفحوص بالمستشفى، ثم نزور الجرّاح العالمي، ونعرض عليه ما لدينا من فحوص ونستمع إلى رأيه؛ فوافقت السيدة على أن أقوم بترتيب الأمر؛ حيث إنها لا تستطيع أن تتحرّك بمفردها، وعدتها بذلك وانصرفت على أن أُخبرها تليفونيًّا عما يتمّ ترتيبه.

توجَّهت إلى محطة قطار الأنفاق لأستقلّه إلى محطة ثوث كنسجتون South Kensington؛ حيث يوجد المستشفى الرئيسي للقلب والصدر ويُسمَّى رويال برونتون Royal Brompton، وحجزتُ موعدا لإجراء موجات فوق صوتية على القلب، وكذلك أشعة على الصدر. في اليوم التالي في الرابعة عصرا بعد مواعيد عملي أبلغت أم فواز تليفونيا أنني قد حجزتُ لولدها في الغد، وأن عليهما أن يحضرا إلى المستشفى في الموعد المقرَّر، وأمليت خادمتها السريلانكية عنوان المستشفى بسدني ستريت Sidney Street.

توجَّهت إلى عملي بالفندق، وأديتُ مهامي بعد أن شكرت مستر ماهر على السماح لي بالتأخير، كما أخبرته بأن عملي في هارودز Harood's يبدأ في بداية الأسبوع القادم؛ فهنَّأني وتمنَّى لي التوفيق في عملي الجديد. عند خروجي من الفندق في اليوم التالي، اتصلت بأم فواز التي أفادتني بأنها ونجلها وخادمتها على وشك النزول، وتواعدنا على اللقاء عند مدخل المستشفى. انتهينا من الأشعة، وتوجَّهنا إلى قِسم الموجات فوق الصوتية، وبينما نحن نتحدَّث في انتظار دورنا أنا وأم فواز، فإذا بإحدى الطبيبات تُحيّينا بلهجة مصرية؛ حيث عرَّفتها على نَفسي وكذلك فواز وأمه، علمت أنها مبتعثة من جامعة المنصورة، طلبت منها سماع قلب فواز حيث أكَّدت شكوكي، وأن الفحصين اللذين طلبتهما هما الفاصلان في هذا الموضوع.

طلبت من د/ هالة أن تُساعدني في ترتيب موعد مع د. مجدي؛ فأفادت بأنه ممكن أن يرانا سريعا بمستشفى أولد كورت Oldcourt الذي يقع بجوار منزله، واتصلت بسكرتيرته سو، وحدَّدت لنا موعدا في السادسة من مساء اليوم التالي. كانت الدكتورة هالة سيدة لطيفة؛ حيث جلست معنا في ثرثرة مصرية لثلث ساعة تطرَّق حديثنا إلى مصر والذكريات المختلفة، وقد استغربت عندما عَلِمت أن وجودي هنا بلندن ليس له علاقة بالطب، راحت

تُعدِّد مميّزات التعليم للطب هنا، وأنها على استعداد لمساعدتي لأبدأ في الدراسة، وتبادلنا أرقام التليفونات، واتفقنا على الاتصال، واستأذنت للانصراف.

دار حوار بيني وبين أم فواز بعد أن تركتنا د. هالة، عَلِمت منها أن زوجها يعمل في منصب كبير في شركة الطيران السعودي، وأنه ابن عمها. وقد تعلّم في أمريكا حيث هو الآن وقد أبلغته تليفونيا بما دار، وأنه سوف يكون معنا في الغد حيث يصل فجرا، وظلّت السيدة تُثني على تصرُّفي ومعاونة الدكتورة هالة التي لا تعرفنا، وأن المصريين هم روح العرب بتعليمهم وثقافتهم وطيبتهم، وأن والدها وجدها كانا تاجرين للحبوب، وكانت تجارتهما بين مصر ومكة والمدينة المنورة، وقد سمعت والدها كثيرا يُثني على أهل مصر، حتى إنها عندما طلبت منه زجاجة من العطر لإهدائها إلى مُدرّستها المصرية بمناسبة ولادتها؛ فإذا به يقول لها إنه كان يشتري أجود أنواع العطور من محال مصر عندما كان أهله ما زالوا يمسكون بخِطام الناقة في بلادهم، كما كان يحكي لها أنه لدى عِلمه وأقرانه -وهو طفل- بوصول الأرز إلى التكيّة المصرية؛ فكانوا يجرون فرحا، ولا يُوقفهم إلا أن يرتطموا بباب التكية.

كانت كلمات السيدة بمثابة مواساة لي عمَّا أصاب مصر التي أخرجت أهلها من أجل لقمة العيش؛ فبعد أن كان الريف المصري يعجُّ بأبناء الجاليات المختلفة من اليونانيين أصحاب البقالات والأفران، والأرمن أصحاب الحرف المختلفة، والمربِّيات البلجيك والنمساويات (هكذا علمت من روايات مختلفة)، أصبح المصري طريد لقمة العيش يبحث عنها في أرجاء المعمورة.

حضر إلينا د. أندرو ليصحبنا إلى الداخل حيث يوجد الجهاز ليبدأ الفحص، كان د. أندرو رجلا لطيفا فهو قصير القامة، وهو ما جعل البالطو الأبيض يصل إلى تحت الركبة (ميدي).

بدأ فحصه، وما أن عَلِم أنني الطبيبة التي اكتشفتُ أن هناك شيئا غير عادي لدى الطفل حتى صار يشرح لي كل تفاصيل الفحص، وكأنه يُلقي درسا فيما يفعله، وكان كلما توقَّف عند نقطة كي يُصوِّرها برَّر لي رغبته في تصوير هذا الجزء تحديدا، ولم يتوقَّف عن الكلام والشرح والثناء على الأطباء المصريين وعلى رأسهم البروفيسور يعقوب. انتهى من فحصه واستمهلنا ربع ساعة للحصول على التقرير والصور لعرضهم على البروفيسور "مستر يعقوب" كما يُنادونه هنا. كان الفحص يؤكِّد وجود عيب خلقي بالقلب، وأن كمية الأكسجين التي يحصل عليها جسم فواز ليست كافية لنموِّه. حصلت على الأشعة وفحص الموجات فوق الصوتية، واتفقت مع أم فواز على أنني سوف أحضر إليها عصر اليوم التالي لترك عمر مع شقيقتها وأبنائهما واصطحابها إلى موعد د. مجدي.

كان الجميع في انتظاري عصر اليوم التالي، وقد حضر الأب من أمريكا، وقابلتني العائلة مقابلة حافلة. حاولوا تقديم الغداء لي، إلا أنني كنت قد تناولت ساندويتش أنهى رغبتي في تناول أي طعام. خرجنا الأب والأم والطفل وأنا إلى تاكسي توجَّه بنا إلى ضاحية إلينج برود واي Ealing Broadway؛ حيث يوجد المستشفى ويسكن الجرَّاح العالمي، وكذلك كثير من أثرياء لندن.

تعرَّفت على السيدة سو وهي إحدى سكرتيرات د. مجدي، وشكرتها على تحديد هذا الموعد العاجل، وأبلغتها تحيات د. هالة. أدخلتنا السيدة إحدى غرف الكشف حيث يتمّ تجهيز المرضى، ويمرّ د. مجدي عليهم حتى يُوفِّر زمن دخول وخروج وسلام المرضى وأُسرهم.

دخل علينا د. مجدي بقامته الطويلة وهيبته التي أسرَتني، كان هدوؤه وتركيزه فيما أمامه من الأوراق والأشعة عميقا جدًّا، حتى ساد الصمت غرفة الكشف إلى أن انتهى من مراجعة هذه التقارير، سألنا عن الحالة

الصحية للطفل بصفة عامة، ومتى تمّ تشخيص الحالة؛ فأبلغته أنني شككت في وجود شيء غير عادي لدى سماعي لقلبه، إثر نوبة حرارة تعرَّض لها الطفل؛ فأوصيت بإجراء الفحصين الموجودين معنا للوقوف على الأمر.

- إنتي متخرَّجة منين؟

- من قصر العيني.

- دايما قصر العيني بخير.. وبتشتغلي فين؟

- أبدا.. أنا حضرت من أجل أن أُسجِّل للدراسات هنا وأنتظر بعض الإجراءات.

لم أستطِع أن أذكر للرجل الذي أثنى عليَّ أنني جئت إلى هنا لأعمل في ترتيب الغرف أو قِسم الماكياج. أخبرنا الجرَّاح العالمي عندما وضع الأشعة في مكانها لتأمّلها، أن ضغط الدم عالٍ على الرئتين، ويُؤدّي ذلك إلى عدم وجود فراغ كافٍ للحصول على الهواء والأكسوجين اللازم للجسم، وهذه أوّل مشكلة يجب حلُّها حتى يتحسَّن نمو الطفل، وذلك بربط الشريان الرئوي لتخفيض الضغط على الشريان المغذِّي للرئة، وأن تصبح جافة بالقدر الذي يمنع الإصابات المتكرِّرة للنزلات المختلفة، وبعد إجراء هذه الجراحة بعام يتمّ التدخُّل الثاني لإصلاح عيوب القلب على جراحة أو اثنتين طبقا لظروف الحالة، حتى ما إذا تمّ ذلك فإن الطفل يُصبح طبيعيا تماما، وأن علينا ترتيب أمر الجراحة مع سو؛ فشكرناه، وانصرف إلى مريض آخر في الغرفة المجاورة.

- ماذا ترى يا أبا متعب؟

- على بركة الله، لعلّ الله قد وضع د. وفاء في طريقنا لعلاج فوازيا أم متعب.

عدنا من جديد إلى سو لتحديد موعد وتفاصيل الجراحة، إلا أنها أخبرتني أن أتصل بها في الثالثة من عصر اليوم التالي، حتى تكون حصلت على تقرير

سريع يكتبه د. مجدي عند مقابلة المرضى يشرح فيه احتياجاتهم الجراحية للعرض على المستشفى لترتيب الأمر. كانت كلمات السيدة والرجل مملوءة بالعرفان، كما أنني أيضا كنت أحمل للسيدة نفس الشعور دون أن تدري؛ فقد كانت هي وأختها سببا في تسهيل حصولي على عمل جيّد في محل هارودز.

عدنا إلى المنزل في بيز ووتر، وقد كان عمر غارقا مستغرقا في اللعب مع أقرانه. عندما هممت بالانصراف، كان إصرار أهل البيت على أن أتناول العشاء معهم شديدا، تناولنا الكبسة وهي أرز وبداخله لحم ضأن وكثير من البهارات، وقد أعددتها أم سالم حتى إذا ما حضرنا كان العشاء جاهزا. اصطحباني والدا الطفل إلى المنزل بتاكسي، فلم يسمحا لي بالعودة وحدي في المواصلات، فشكرتهما، وأخبرتهما أنني سوف أخبرهما عن تفاصيل ما سوف يدور بيني وبين سو في عصر الغد. اتصلت بالدكتورة هالة صباح اليوم التالي لأخبرها بما كان، وشكرتها كثيرا على تحديد الموعد، ووعدتني بأنها ستبدأ في بحث أمر دراستي فورا.

كان ذلك أثناء عملي بالفندق الذي بدأت أشعر أنه لا طائل منه، وأنني يجب أن أنسحب منه سريعا؛ فمشروع الدراسة لا بد أن يأخذ حيّزا من الوقت، كما أنني سوف أحصل على دخل جيّد بعدد أقل كثيرا من ساعات العمل بالفندق من عملي بهارودز، وتُؤهِّلني ساعات الفراغ للدراسة والاندماج أكثر في هذا المجتمع.

اتصلت بالسيدة سو قبل الموعد بساعة؛ حيث إن بداية عملي في الثالثة، ولم أرغب أن أمارس أي اتصال أو أن أتأخَّر عن العمل بالذات أوَّل يوم.

علمت من سو أن موعد العملية قد تحدَّد بعد عشرة أيام بمستشفى هيرفيلد (Harefield Hospital)، وأن عليَّ الاتصال بمسجل المستشفى لمزيد من التفاصيل بما يكون. اتصلت بالمسجل وأنا في طريقي إلى هارودز لأوَّل يوم من العمل هناك؛ حيث أكّد لي موعد العملية، وأن الدخول إلى المستشفى يكون قبل الموعد بيوم، ولمَّا سألته عن التكاليف المتوقَّعة للجراحة لم يكن لديه رد جاهز، وأخبرني بأن أتصل به في اليوم التالي للردّ على ذلك.

كان يومي الأوَّل في هارودز كيومي الأوَّل في عملي السابق بالفندق؛ فقد تعلَّمت التحفُّظ من الإنجليز الذين يعيشون حولي، فلم أُسرف في سرعة التعرُّف على زملائي كعادة المصريين، ولكني اتخذت موقف البهيمة الغريبة كما يُقال في الريف عندنا (فحينما تنضمُّ بقرة أو جاموسة جديدة إلى حظيرة؛ فإنها لا تختلط بباقي البهائم، بل تظلّ لمدة في أحد الجوانب وحدها قبل أن تندمج مع باقي القطيع). كان يوما عاديا لم أحظَ فيه بزبائن على شاكلة أم فواز وشقيقتها، وكأن تواجدهما كان مِنحة من الله ليُسهّل لي مهمتي، لِمَ لا؛ فأنا أرغب في العمل من أجل مستقبل أفضل لي ولولدي، وقد حثَّ الدين الإسلامي على الضرب في الأرض من أجل الرزق.

اتصلت بأم فواز لأبلغها عن موعد العملية ومكانها، وعرضتُ أن أعطيها رقم مسجّل المستشفى لمزيد من المعلومات، إلا أنها ناشدتني أن أُتمَّ جميلي وأُكمل اتصالاتي وأخبرها في النهاية بالأمر.

كان اتصال فريد لدى خروجي من هارودز مفاجأة رائعة؛ فكأنه الأب الذي ينتظر ولده بعد فراغه من أوَّل يوم في المدرسة، وكانت مكالمة جميلة طمأنته على عملي الجديد، وأخبرتُه ما كان من أمر د. هالة التي تعرَّفت عليها إثر صدفة، وعرضُها أن أبدأ في الدراسة للطب هنا من جديد، فشجَّعني، كان

صوته مليئا بالبِشر مجلجلا، وكأنه قد أفلح هو أيضا في شيء ما يتمنَّاه لنفسه، كما أخبرته عن رغبتي في إنهاء عملي لدى ماهر بالفندق حتى لا أُكثر من الاستئذان لأمور مختلفة؛ فوافق أيضا.

توجَّهت في صباح اليوم التالي في موعد مناسب إلى مكتب ماهر، وأخبرته عن رغبتي في ترك العمل كما توقَّع، وشكرته على مساعدتي في خطواتي الأولى هنا، واتفقنا على أن أستمرّ أسبوعا آخر في العمل، أقوم فيه بتدريب مَن يخلفني في وظيفتي. خرجت من مكتب ماهر وقد أحسست بالراحة؛ فقد كانت ارتباطاتي الأخيرة بعائلة فواز ومكالماتي المتكرِّرة مصدر قلق لي، فلم أكُن أرغب في أن أُقصِّر في عملي ولو بدقائق من المكالمات. عاودتُ الاتصال بمسجل المستشفى الذي أخبرني بأن تكاليف الجراحة تبلغ حوالي ثمانية آلاف جنيه (إسترليني طبعا) علينا دفعها لدى الدخول للمستشفى.

اتصلت بأم فواز فأخبرتها بما لديَّ من أخبار، واقترحت عليها أن نذهب في زيارة استكشافية للمستشفى الذي يقع في ريف لندن يوم الأحد القادم لمزيد من المعلومات. مرّت الأيام الأخيرة لي في العمل بالفندق سريعة؛ فقد كان عليَّ إخبار السيدة ميلادا التشيكية التي جاءت لتحلَّ محلِّي بتفاصيل كثيرة حول مجموعة التنظيف والمغسلة وطريقة الحساب، ومراجعة أرصدة الفرش والبشاكير والصابون... وما إلى ذلك، كما أضفت إليها معلومات عن مواعيد الزبائن التي أصبحتُ خبيرة بها طوال ثلاثه أشهر من العمل، وكيفية تفضيل تنظيف غرفة تمَّ إخلاؤها ليحظى زبون جديد على دخول مبكِّر للغرفة؛ حيث إن معظم زبائن الفندق يخرجون في الصباح الباكر ليعودوا بعد مواعيد العمل، فقد كانت لمساتي هذه تريح الزبائن، وتُعطي عاملة الاستقبال المرونة الكافية لإرضاء العميل الراغب في الدخول مبكِّرا early check in، وكذلك العميل الراغب في الخروج متأخِّرا late check out، وهو

ما ظهر كثيرا في بطاقات استطلاع الرأي التي يملأها العميل بطريقة روتينية لدى مغادرته للفندق؛ حيث كان ذلك محل ملاحظة مستر ماهر الذي كان كثيرا ما يُترجِم ذلك إلى مكافآت مالية.

وفي صباح يوم الأحد، توجَّهت إلى منزل فواز طبقا لموعدي معهم، وتركت عمر هناك الذي استُقبل بحفاوة بالغة من أقرانه، اتجهنا أنا والولدان إلى مستشفى هيرفيلد بتاكسي من أمام المنزل، كان الطريق طويلا؛ حيث كان علينا الاتجاه إلى الطريق المؤدِّي إلى مطار هيثرو، ثم الخروج إلى طريق فرعي نسير فيه لمدة نصف ساعة أو أكثر قليلا للوصول إلى المستشفى، فقد استغرق الطريق من المنزل إلى المستشفى حوالي ساعة ونصف الساعة، وذلك يوم الأحد، والطرق جميعها في أهدأ حالاتها. لذلك كان يجب أن يتحرَّك الوالدان للسكن بجوار المستشفى وقت العملية.

كان مبنى المستشفى عتيقا يتكوَّن من دور واحد، والمساحة التي خُصِّصت له كبيرة جدًّا؛ فقد كانت منتجعا ريفيًّا بحق، لا تسمع فيه إلا أصوات الطيور باستثناء صوت الأتوبيس الذي يدخل حرم المستشفى كل نصف ساعة ناقلا ركابه بين المستشفى ومحطة أوكس بردج (uxbridge) بداية خط قطار الأنفاق المتجه إلى وسط لندن.

في الردهة الرئيسية للمستشفى قابلتنا عاملة الاستقبال؛ حيث أعطتنا بروشور للمستشفى الذي كان مصدر فخري واعتزازي بمصريتي؛ فقد ظهر عليه صورة لطبيب كانت للدكتور مجدي، وصورة أخرى لمريض كانت للممثِّل المصري العالمي عمر الشريف الذي كان قد أجرى جراحة بالقلب في هذا المستشفى. سألت سيدة الاستقبال عن كيفيه السكن بجوار المستشفى؛ فأشارت إلى مبنى موتيل على بُعد ثلاثمائة متر منها تقريبا داخل

حرم المستشفى، وهو المخصَّص لإقامة أهل المرضى، وأفادت بأن علينا الذهاب إلى هناك قبل الثانية للحجز.

تركناها بعد أن عَلِمنا أن موعد فواز مسجَّل عندها طبقا لما أخبرنا عنه مسجِّل المستشفى، أخبرتنا بالتواجد قبل يوم العملية بيوم في الظهر، وإخبار إدارة المستشفى بوجودنا. كان الموتيل المسمَّى بارك وود هاوس Park wood house عبارة عن مبنًى يتكوَّن من طابقين؛ أحدهما تحت مستوى الأرض، وقد التقينا المسئولة عنه السيدة عزيزة المغربية الأصل، التي لا تعلم من اللغة العربية أكثر من كلمات التحيَّة والسلام.

رحَّبت بنا السيدة، وأخذتنا لنرى إحدى الغرف الفندقية التي يضمَّها المكان، وأخبرتنا أن تنظيف الغرف وتغيير أطقم الأسرَّة والمناشف يتمّ مرتين في الأسبوع، اصطحبتنا إلى الدور تحت الأرضي؛ حيث توجد غرفة للتليفزيون تضمّ مكتبة يتواجد بها روَّاد الموتيل للتسلية والاطِّلاع، وقد حجزنا غرفة ودفعنا إيجارها لمدة أسبوع من الإقامة، على أن نحضر في الموعد المقرَّر. في طريق عودتنا إلى استقبال المستشفى كانت هناك لافتة كُتِب عليها مواعيد الأتوبيسات التي تبدأ في السادسة وست وثلاثين دقيقة في الصباح، ويكون آخر هذه الأتوبيسات في الثامنة وست وثلاثين دقيقة في المساء، وتتحرّك بانتظام كل نصف ساعة.

كان أمامنا ربع ساعة لنستقلّ الأتوبيس إلى خارج المستشفى، كان مطعم المستشفى الواقع بجوار محطة الأتوبيس على بُعد خطوات منَّا، كان بجواره مني ماركت للبيع بعض المنتجات البسيطة مثل الشيبس والشيكولاته والمشروبات والآيس كريم، أما المطعم فيُقدِّم الوجبات الثلاثة بمواعيد كُتِبت على بابه؛ حيث يتمّ وضع المأكولات المرغوبة على صينية يتجه حاملها إلى الكاشير ليدفع ثمن الموجودات على الصينية. يأكل في هذا المطعم كل

مَن يعمل أو يأتي للمستشفى، كما كانت المقاعد حول المحطة من الكنب الخشبي، وقد وضعت على كل مقعد لافتة صغيرة تشير إلى المتبرّع بها وتاريخ التبرُّع. ركبنا الأتوبيس الذي تحرّك في الموعد المقرّر تماما، كانت أولى محطاته بقرية هيرفيلد على مسافة نصف كيلومتر تقريبا من داخل المستشفى، وقد لاحظت وجود محال للبقالة ومغسلة ومحال أخرى تبيع كل ما يحتاجه أهل القرية وروّاد المستشفى على حد سواء.

لاحظت خلال رحلة الأتوبيس إلى محطة أوكس بردج أن الناس يعرفون بعضهم بعضا، وأن معظم الركاب في هذا الوقت من كبار السن، وأن الراكب عندما يصعد إلى الأتوبيس؛ فإنه يتبادل التحيَّة مع كثير من ركَّابه، وكذلك إذا ما هَمّ بالنزول. دخلنا محطة قطار الأنفاق المجاورة للمحطة التي أنزلنا فيها الأتوبيس، وركبنا قطار الأنفاق من خط بيكاديللي الذي يوصّلنا إلى المحطة التي يقع فيها منزل أسرة فواز أسرع من أي وسيلة أخرى عبر تغيّر واحد من الخط إلى خط الد يستركت الذي يُشار إليه باللون الأخضر.

تناولنا كبسة الدجاج لدى وصولنا لمنزلهم، وجلسنا جلسة صغيرة تناولنا خلالها القهوة العربية البيضاء بطعم الحبَّهان، وانصرفنا أنا ونجلي إلى المنزل.

كانت الأسرة السعودية لطيفة؛ فهم من أبناء المدينة المنورة التي نتبادل معهم حبًّا بحب، ويستمتع المصريون كثيرا بزيارة سيد الخلق الذي اتخذها مهجرا له، واتخذ مِن ترابها ثرى طاهرا يضمّ جسده الشريف. كانت السيدة في غاية البساطة والتلقائية، أمَّا زوجها فقد كان أدبه الجمّ يحول بينه وبين أن ينظر إليّ إذا دار بيننا الحديث، وكذلك كانت أختها. أما الأطفال فكانوا في منتهى الشقاوة، وقد انضمَّ إليهم عمر في شقاوتهم بعد أن بدأت أخلاق الإنجليز -التي اكتسبها من الحضانة- تظهر بوضوح على سلوكه. لم يبقَ لي في

العمل بالفندق سوى يومين، تفانيت خلالهما في نقل كل معلوماتي إلى السيدة التشيكية -بطيئة الفهم- وإن كان اجتهادها ورغبتها في إتقان العمل يغلب على بطء فهمها؛ فتكون النتيجة جيِّدة في معظم الأحوال؛ حتى إنني قلت لها في آخر يوم معها إنني لن أفعل شيئا، ولكني سوف أُتابع عملها وأتدخّل حين اللزوم، فمرّ اليوم جيِّدا، وودعتُ السيد ماهر وحصلتُ على باقي مرتبي، وخرجتُ إلى خطوة جديدة في طريق مستقبلي.

كان عملي بهارودز بين أصناف الماكياج والعطور، وقد أصبحت في أيام قليلة أكثر إلماما بما لديَّ من أصناف وكيفية بيع واختيار الأنواع المناسبة لمختلف روَّاد المكان. تأخّر موعد استيقاظنا، وبالتالي تأخّر موعد حضانة عمر التي أصبحت قريبة من المنزل، كانت المكالمات المتبادلة بيني وبين أسرة فواز شبه يومية، كما زادت مكالماتي للدكتورة هالة التي أخذت على عاتقها أن تُساعدني في خطواتي الأولى نحو استكمال دراسة الطب هنا.

كان مستشفى رويال برونتون Royal Brompton على بُعد ربع ساعة على الأقدام من هارودز على أكثر تقدير، وهو ما مكّنني من تكرار زيارة صديقتي الجديدة د. هالة في طريقي إلى عملي في هارودز في موعد الغداء عندهم؛ فقد كنَّا نتناقش في تفاصيل بداية الدراسة بالنسبة لي، لم أكُن قد اصطحبت أي كتب عن الدراسة من مصر، لكني كنت قد ترجمت شهادتي والمواد التي درستها طوال مدة الدراسة بالكلية، وكذلك شهادة الخبرة التي حصلت عليها من مستشفى أبو الريش لدى إخلاء طرفي هناك تحسُّبا لأي احتياج. دفعني فراغي في الصباح لتكرار هذه الزيارات دون أن أثقل على د. هالة؛ حيث كانت حياتها موزَّعة بين الدراسة والعمل في المستشفى ورعاية أسرتها المكوَّنة من الزوج وثلاثة أبناء أصغرهم ذَكَر، وهم في منتهى الشقاوة والمكر أيضا، وقد أصبحت هذه الأسرة قريبة منِّي بقية فترة بقائها في لندن.

حان موعد دخول فواز إلى المستشفى حيث صحبتهم مبكِّرا إلى هناك؛ فحصلنا على الغرفة في بارك وود هاوس، وأخبرنا إدارة المستشفى بوجودنا؛ حيث طلبوا من والده التواجد بِردهة المستشفى في الثالثة ظهرا؛ لمقابلة طبيب التخدير وتوقيع بعض الأوراق، وذلك بعد أن أودع المبلغ المطلوب في خزينة المستشفى. ودعت الأسرة إلى الأتوبيس للعودة؛ انتظارا لاتصالهم لمعرفة موعد الجراحة لدى علمهم بذلك.

أكملت يومي بهارودز، وقد علمت أن موعد الجراحة في الثامنة من صباح الغد، كما اتصلت بي أم سالم راغبة في اصطحابها في صباح الغد لتكون مع شقيقتها أثناء العملية، لذلك كان عليَّ النزول في السادسة لترك عمر بالحضانة، ثم التوجُّه إلى بيزووتر لاصطحاب السيدة إلى هناك.

تعتبر السادسة صباحا من ساعات الذروة في الشارع الإنجليزي؛ فالمحطات تمتلئ بالركاب وكذلك الشوارع، ويكون قطار الأنفاق في استقبال أعداد كبيرة من الركَّاب لا تسمح للجميع بالجلوس على مقاعد داخله؛ فالوقوف أكثر كثيرا من الجلوس في هذا الموعد. وصلنا إلى المستشفى عبر قطار الأنفاق وأتوبيس الضواحي؛ فقد كنتُ قد استخرجت اشتراك مواصلات لمدة أسبوع للمناطق الستة التي تتكوَّن منها العاصمة لندن؛ فقد كان اشتراكي دائما للمنطقة الأولى والثانية، ولكن المستشفى يقع في المنطقة السادسة. كان وصولنا في الموعد المناسب؛ حيث كان الطفل قد ارتدى جاون جميلا مزيَّنا بصور رسوم الأطفال من أبطال ديزني المشهورين (ميكي وبطوط وباقي الفريق).

ذهب الوالدان مع نجلهما إلى غرفة التخدير الملاصقة لغرفة العمليات، وعادا لدى استلامه لجرعة التخدير المقرَّرة. وأخبرونا ما كان من الليلة الماضية؛ فبعد أن عدَّد لهم طبيب التخدير كل المخاطر التي قد يتعرَّض لها

الطفل. قدَّم بعض الأوراق للأب الذي قام بتوقيعها لإخلاء مسئولية المستشفى تجاه أي مضاعفات محتملة، وكذلك موافقة الأب لأن يتعرَّض الطفل لنقل الدم في حالة الاحتياج لذلك. بعد ذلك، أخبرتهم إدارة المستشفى أن الأخصائي النفسي في الطريق إليهما، وهو إجراء روتيني أيضا، أخبرنا أبو متعب (والد الطفل) أنه لم يقُم بأي ترجمة لزوجته؛ حيث إنه كان البادئ مع الأخصائي النفسي بأنه مؤمن بالقدر خيره وشره، وأن لكل أجَل كتاب، وأن الله مُعطي الأبناء، وله الحقُّ المطلق في إنهاء حياتهم في أي وقت، وأن الدين الإسلامي قد ثبَّت مُتَّبعيه على هذه الفترة البسيطة والمريحة.

فكان تعقيب رجل العلاج النفسي بأنه لن يُضيف شيئا إلى الزوجة؛ فإذا كانت هذه قناعتها فلا حاجة بها إليه. مرَّت ساعات ثلاث تبادلت السيدتان القراءة من مصحف كان معهما، وكنت بين الحين والآخر أتدخَّل لفرض بعض الطمأنينة على الموقف. أمَّا الأب فقضى معظم وقته بين حدائق المستشفى وبيننا في صالة التليفزيون الملحقة بغرف اللعب للأطفال، حتى أخبرونا بانتهاء العملية. كان هناك أطفال كثيرون تحت العلاج الجراحي لعيوب خلقية بالقلب؛ فهذا المكان يُعتبر أشهر مكان في العالم لإجراء جراحات العيوب التي يُولد بها الأطفال، وذلك بفضل د. مجدي الذي كان يأخذ هذه الحالات مأخذ التحدِّي: فكان يقوم بإجراء الجراحة، ثمَّ يخرج ليشرح لطلابه ماذا فعل، وذلك في غرفة العناية المركَّزة؛ حيث يكون قريبا من حالاته لدى خروجها من الجراحة لمدة ساعتين طبقا للقانون الإنجليزي.

كان الرجل يتحرَّك في أرجاء المستشفى المترامي الأطراف بسرعة كبيرة؛ فكان تقريبا يجري ويلحق به مجموعة الدارسين وإحدى السكرتيرات.

خرج فواز على الترولي بصحبة فريق مكوَّن من ستة أفراد: أحدهم كان راكبا فوق الترولي لمساعدة فواز على التنفُّس أثناء نقله إلى العناية المركزة. كان الترولي مُحاطا بكثير من الخراطيم والأجهزة، حتى ما إن وصلوا إلى العناية المركزة، استمهلونا دقائق للسماح لنا بالدخول. وبعد دقائق معدودة خرج الفريق الناقل لفواز، ودعتنا ممرِّضة للدخول؛ إذ إنه أصبح مستقرًّا الآن في سريره. كانت الأجهزة تُحيط به من كل مكان؛ فهذا مونيتور لدقات القلب يعرض سرعة الدقات وشكل الموجات وكذلك نسبة الأكسوجين في الدم التي أصبحت الآن بين ٩٦% و٩٩%، كما توجد مضخَّات موصَّلة بالطفل تضخّ ما بها من سوائل إليه طبقا لأنظمة دقيقة وكان عددها ست.

أمَّا أجهزة قياس الحرارة وضغط الدم؛ فهي عبارة عن عدادات كبيرة تسير على عجلات ليست مثل ما كنت أرى في مصر. أعدت الممرضة كرسيَيْن مريحين على جانبَي سرير فواز، وأخبرتنا أنهما للوالدين إذا ما رغب أحدهما أو كلاهما في النوم بجوار ولده فلا مانع.

دخل د. مجدي إلينا وقد استبدل ثياب الجرَّاحين استعدادا للخروج على ما يبدو، وبعد أن حيَّانا بإيماءته الصامتة، وقف أمام فواز وصار يتفحَّص بعض السطور التي كتبتها الممرِّضة التي كانت دائمة التحرُّك وتضبط الأجهزة حول فواز الذي كان خاضعا لجهاز التنفُّس الصناعي. توجَّه لنا الدكتور مجدي بكلمات مقتضبة؛ تعني أن كل شيء تمّ كما هو متوقَّع، وقد بثّ ذلك الطمأنينة في قلب الأبوين والخالة، وقد تغيَّر لون بشرته وكذلك أظافره إلى اللون الأحمر بعد أن كانت تميل إلى الزرقة.

كانت غرفة العناية المركَّزة تحوي ستة أسرَّة، يفصل بينها ستائر تُسدل في حالة التدخُّل للقيام بدور علاجي لأي طفل. انتحى د. مجدي جانبا، وبدأ يشرح على السبّورة الموجودة بغرفة العناية المركزة لفريقه ماذا تمّ وماذا

أنجز لفواز، ووجدتني أنضمُّ إليهم في صمت، حتى ما إذا أشارت عقارب الساعة إلى الواحدة حتى استأذنت وهممت بالرحيل حيث يبدأ عملي في الثالثة، وأن الساعتين كافيتان للوصول إلى هارودز، وقد ذكَّرت أم سالم بأن آخر موعد لتحرّكها من المستشفى هو الثامنة والنصف؛ حيث لا توجد مواصلات بعد ذلك إلا التاكسي الذي يُمكن استدعاؤه في أي وقت. دفعني فضولي نحو الطب إلى أن أتحرَّك في اليوم التالي مبكِّرا في اتجاه هيرفيلد إلى المستشفى الذي وصلت إليه في التاسعة والنصف، دخلت مباشرة إلى حيث يوجد فواز بالعناية المركَّزة، فلا توجد تعليمات ولا مواعيد للزيارة، ولا يطلب منك أكثر من غسل يديك بالمواد المطهّرة المنتشرة على الحوائط وبجانب الأبواب.

كان الأب موجودا بجوار ولده، وأخبرني بأن زوجته ذهبت للراحة وتبديل ملابسها في الموتيل الملحق بالمستشفى، وأنها سوف تحضر في الثانية عشرة؛ لأنها قضت ليلتها على هذا الكرسي الذي يتحوَّل إلى سرير بجوار ولدها، وهكذا يبدو أن معظم الأمهات يفعلن ذلك. خرجتُ أتجوَّل بالمستشفى، قابلت سيدة في العقد السادس من العمر تصطحب ابنة لها في الخامسة والعشرين تقريبا، تبادلنا التحيَّات؛ فقد كان ثلاثتنا قد طبع بطابعة أنا مصري. أخبرتني السيدة أنها زوجة الدكتور حبشي الصيدلي المصري الذي كان يمتلك صيدلية شهيرة بالدقي، وأنها وماريانا ابنتها في زيارة لطفل مصري يُدعَى محمد أتى من ريف بنها لإجراء جراحة هنا، وهما تقومان برعايته وشدّ أزر والدَيه، لم تكن هناك علاقة بين السيدة وابنتها وأهل الطفل القادمين من مصر، ولكنهما كانا يُمارسان هذا الدور الإنساني تجاه كثير من المصريين الذين يحضرون للعلاج هنا؛ فكثيرٌ منهم ليس له عهد بالسفر إلى الخارج والتعامل مع مفردات الحياة المتقدِّمة في الغرب.

قابلت الأستاذ/ حسين وزوجته رشيدة التي حضرت إلى هنا بملابس الريف، وعَلِمت أن ابنهما قد تعافى. شربنا الشاي مع البسكويت ذي العجوة الذي أحضرته السيدة/ إزيس معها لأهل محمد، واستفسرت من الأستاذ/ حسين كيف أتى إلى هنا، فلم يكن مظهره يسمح له بالحضور إلى هنا، عَلِمت منه أنه لجأ لأحد الصحفيين من قريته فنشر قصة ولده، وحصل على قرار للعلاج على نفقة الدولة شاملا السفر وتكاليف العملية وبدل إقامة أيضا، وأنه الآن عليه أن يعود إلى مصر بعد شفاء ابنه الذي رأيته يلعب في غرفة اللعب، ولكنه لا يرغب في العودة؛ خوفا على ولده الذي يجد كثيرا من الألعاب حوله ويعيش في جو نظيف وصحي هنا، وأن المستشارة الطبية تلحُّ عليه في ترك المستشفى والعودة، ولكنه يُحاول أن يبقى لأطول فترة ممكنة في هذا النعيم؛ على حدِّ تعبيره.

تبادلنا أنا وماريانا أرقام التليفونات، وتوجَّهنا تصحبنا أمها إلى حيث فواز الذي كان قد تخلَّص من جهاز التنفُّس الصناعي، وكانت أمه قد عادت من السكن فطمأنتها أن حال غاز الأكسجين في دم فواز أصبح أحسن كثيرا، وقد بدى ذلك على لون بشرته، وهذا هو المطلوب من هذه الجراحة. اصطحبت السيدة/ إزيس وابنتها في رحلة العودة إلى لندن، وكان الحديث بيننا ممتعا حتى افترقنا عند إحدى محطات قطار الأنفاق القريبة من سكنهم، على أن تستمرّ مكالماتنا والمقابلات إذا أمكن، وقد أخبرتها بعملي في هارودز، وأنني أُرحِّب بهما في أي وقت هناك، وقد أساعد على استصدار بطاقة خصم لهما عند الشراء.

توجَّهت صباح اليوم التالي إلى هيرفيلد حيث المستشفى المليء بالأحداث؛ فقابلت الأستاذ/ حسين الذي لم يكن راضيا عن أي شيء حوله، وكثير الشكوى لأتفه الأسباب، فبادلته التحيَّة، وأخبرني بوصول حالة جديدة من

مصر مساء الأمس؛ فاستمهلته حتى أرى فواز ووالده، فطلب أن يحضر معي، فكلنا عرب والسلام على حد قوله. كان وضع فواز أفضل، والمضخَّات والأجهزة حوله أقل، ولكنّ الممرضات لا يهدأن عن إجراء قياس أو فحص أو كتابة ملاحظات أو ما إلى ذلك طوال الوقت. أخبرنا والده أنه سوف يُنقل إلى عنبر آخر عصر اليوم كما علم، وأن زوجته ستكون موجودة هنا في موعدها كخطة الأمس.

ذهبنا أنا والأستاذ/ حسين إلى غرفة المريض المصري؛ فقد كان أستاذا في جراحة العظام من مصر، وقد استعدّ لإجراء قسطرة تمهيدا لجراحة قلب مفتوح صباح اليوم التالي. وجدنا معه زوجته ورجل يتكلًّم بلكنة دمياطية لا تخطئها الأذن يُدعَى جلال شلبي، وما أن تحرَّك الطبيب المريض بسريره لإجراء الفحص حتى سألني جلال عن اسمه.

- اسم مين؟
- الراجل اللي خرج دلوقت.
- هو إنت ماتعرفوش؟
- لا.
- أمّال جاي ليه؟
- واجب.

وراح الحديث يمتدّ بيننا؛ حيث علمت أنه يسكن في منطقة راقية بجوار تاور بردج، وأن عمله في الوساطة في استيراد الأخشاب وماكينات سفن الصيد التي تشتهر بها دمياط، وأنه جاء إلى هنا بعد أن سافر من دمياط إلى لبنان طلبا للرزق، فقد أقرضه أحد أصدقائه في حلوان عشرين جنيها لاستصدار جواز السفر، لم يستطِع أن يحصل عليها من أي أحد في دمياط وقتها. تنقَّل بين العمل كعامل أويما، وكذلك عامل على السفن حتى استقرّ

له الحال هنا في بريطانيا، وأنه كثير الأسفار حيث يصطحب التجَّار من بلدته إلى مصادر الخشب بالهند والبرازيل ورومانيا وبلاد وسط إفريقيا وبعض البلدان الأخرى، كما أنه يُساعدهم في إدخال الميكنة ووسائل الإنتاج الحديثة إلى مصانعهم وورشهم، وأنه لدى وجوده في لندن فإن عمله يقتصر على إجراء المكالمات آناء الليل وأطراف النهار؛ حيث مجموعة البلدان التي يتعامل معها تمتدّ من الشرق إلى أقصى الغرب في أمريكا اللاتينية.

وأنه يزور ويرعى المرضى المصريين هنا في بريطانيا تقرُّبا لله دون أن تكون بينه وبينهم معرفة سابقة، وأنه يعرف كثيرا من الأطباء المشهورين هنا في لندن كلٌّ في تخصّصه من كثرة الزيارات للمرضى.

عاد الطبيب المصري بعد أن أجرى القسطرة، وأنا لم أكُن فرغت بعدُ من حديث الأستاذ/ جلال الشيّق حيث استأذنت لباقي شأني. كانت زياراتي إلى مستشفى هيرفيلد تبعث إليَّ كثيرا من الألفة؛ فقد رأيت هناك كثيرا من المصريين، وكانت الدكتورة هالة التي كنت على اتصال دائم بها لإطلاعها على حالة فواز وتدعيم العلاقة بيننا، كانت في انتظار والدتها التي ستحضر من مصر بعد أسبوع لقضاء بعض الوقت هنا.

لدى نزولي في اليوم التالي من الأتوبيس بالمستشفى استقبلني الأستاذ/ حسين، وبادرني بقوله: خلاص إحنا مسافرين.

- بالسلامة إن شاء الله.

- مستنيين عربية الملحق الطبي علشان توصّلنا المطار.

فسلَّمت عليهم وتمنّيت لهم سفرة آمنة إلى مصر؛ فسوف أفتقد لازمته التي كثيرا ما يقولها عند رؤية أي شيء لا يُعجبه (آهي بلاوي بتتحدّف علينا). استأنفتُ جولتي بالمستشفى بداية بفواز الذي نُقِل إلى غرفة عادية، ثم

إمنيولا الإيطالية التي أصبحت ذات قلبين بعد أن أضاف إليها د. مجدي قلبا آخر بجوار قلبها الأصلي، وكذلك تينا اليونانية التي تنتظر قلبا ورئتين وهي في الثانية والعشرين من عمرها.

كنت أرى الدأب في حياة الأطباء والممرضين الذين لم أكُن أستطيع أن أفرِّق بينهم من المظهر، وكنت أرى الأمل والعرفان في أعين المرضى وذويهم.

كان الرضا يغلب على كل المشاعر، والهدوء والطمأنينة تملآن المكان، وكانت الثقة بين المريض وطبيبه، والتعاون بين الطبيب وطاقم التمريض، هما السمتان الغالبتان على كل مَن أسلم نفسه لإرادة الخالق ومبضع الجرَّاح هنا. كانت الحكايات تحكي عن عبقرية رائد طب القلوب المصري، وعن إنجازاته في صدور مرضاه التي لم يسبقه أحد إليها.

أحببت المكان، وكنت أذهب إليه وكأنني في نزهة، ولم يكن شأن فواز فقط هو الذي يُهمّني، بل امتدت علاقاتي وزياراتي إلى كل مَن في المستشفى، حتى ما إذا خرج فواز لم أنقطع عن زيارة هذا المكان الذي أحببته، وكذلك أحبَّته عائلة د. حبشي وجلال... وغيرهم من المصريين الكرماء. ولدى خروج فواز من المستشفى طلب منّي والده أن أصحبه لإدارة الحسابات بالمستشفى للوقوف على الفاتورة وما سوف يُطلَب منه، إلا أننا وجدنا الفاتورة داخل دوسيه الحالة، وبها شيك باسمه بمبلغ ٩٠٠ جنيه باقي له لم تستهلك بالمستشفى. رحت أقارن بين ما يحدث عندنا والفاتورة التي لم يكن بها أكثر ثلاثة بنود؛ هي: ليالي المستشفى وأجر الجرَّاح والتخدير. هكذا فقط لم يكن هناك فتح غرفة عمليات وشاش وقطن ومواد مطهّرة وأخرى مخدِّرة وثالثة لا يعرف معناها بالفاتورة، ولكن عليك أن تدفع ولا تعترض، ورحت أتذكَّر يوم ذهبت لزيارة أحد أقارب المرحوم نافع في أحد المستشفيات الاستثمارية بمصر، حرصا منّي على تواصل نجلي بأهل أبيه، وعند وصولي للمستشفى

كان المريض قد أسلم الروح، طلب مني أحد الأقارب أن أكون في صحبته لإنهاء الحسابات حتى يستطيع الخروج بالجثمان، وعند المراجعة كانت الكشوف كلها عجبا، وتُشبِه كشوف نجيب الريحاني التي تحوي "شيء ثم شيء لزوم الشيء". وقد كان آخر بنود هذا الكشف العجيب الذي تجاوز الخمسين ألفا من الجنيهات لجراحة تُوفِّي على إثرها المريض في ثلاثة أيام، كان آخر بند عشرين جنيها ثمن مُلاءَة يلفّ بها الجثمان. تعافى فواز وحان موعد رحيله، بعد أن قضى أسبوعا آخر في بارك وود هاوس (الموتيل داخل حرم المستشفى). ذهبت لوداع الأسرة حيث سبقتهم الأسرة الشقيقة إلى وطنهم، كانت المشاعر والثناء والعرفان تغلب على حديثهم معي. حاول رب الأسرة أن يعطيني ظرفا به نقود قد أعدَّه من أجل ذلك، ولكني امتنعت في غير تصنُّع، فلم أكن أشعر أن لي أجرا عند هذه الأسرة التي فتحت لي كثيرا من الآفاق، فما كان من زوجته إلا أن خلعت سلسلة ذهبية كانت تلبسها وقلَّدتني إيَّاها، واستحلفتني بالله ألا أردَّها فتكون ذكرى لي عندها.

في إحدى الليالي دعتني د. هالة لعشاء مصري عندهم بالمنزل مكوَّن من الحمام والمحشي ومشتملاتهما؛ حيث كانت قد أحضرته والدتها من مصر لدى حضورها، وعلمت منها أن جلال وزوجته سيكونان على العشاء معنا؛ فهو يعرف معظم المصريين قاصدي الطب في لندن دراسة أو حاجة. كانت أمسية مصرية رائعة، تعرَّفت فيها على زوجها محمود وأبنائها الثلاثة ندى وبسمة ومحمد، أكلنا جميعا كأننا لم نأكل من قبل؛ فكان الطعام لذيذا، وحكايات جلال ومحمود كانت تعيدنا إلى وطننا الذي تركته، ولكنه ظلّ يعيش في وجداني.

وكان من طرائف حكايات جلال أنه دأب على زيارة أحد المرضى المصريين بمستشفى لندن كلينيك، لم يكن يعلم أي شيء عنه أكثر من أنه مريض مصري تصحبه زوجته لإجراء جراحة، ولمّا تحسَّن الرجل وعلم جلال موعد سفره، أصرَّ جلال على اصطحابه للمطار لتوديعه، لكن الرجل اعتذر لجلال شاكرا له حُسن خُلقه وجميل السؤال عليه، ولكن جلال زاد إصرارا، وأخبر الرجل أنه سيكون في الغد عنده بالمستشفى لحمل الشنط والذهاب به إلى المطار، كما أنه سوف يُوصي أحد موظفي مصر للطيران عليه لإعفائه من رسوم الوزن الزائد. في الموعد في اليوم التالي لدى حضور جلال للمستشفى، وجد السفير المصري وكثيرا من أعضاء السفارة الذين حيَّاهم، وذهب إلى المريض الذي جاء من أجل إجلائه إلى المطار، لمّا دخل عليه الغرفة كان الرجل قد استعدّ للرحيل؛ فأبلغه بأنه رأى كثيرا من رجال السفارة على رأسهم السفير في ردهة المستشفى يبدو أن هناك شيئا ما يخصّهم هنا. وببساطه قال له الرجل إنهم جاءوا من أجل وداعه؛ فهو يعمل عملا مُهمًّا في مصر، ولما سأله ماذا يعمل؟ أبلغه الرجل أنه يعمل رئيسا للوزراء.

توطدت علاقتي بهالة وأسرتها، وكذلك جلال وزوجته لوسي التي يناديها بخديجة، وقد كان محمود زوج د. هالة أخا حقيقيا لي وكذلك كان أيضا جلال؛ فكنّا أحيانا نذهب أنا ومحمود وجلال لسوق السمك لشراء بعض الأسماك من سوق الجملة؛ حيث يرتصّ الباعة في الصباح الباكر، وكأنهم أطباء في أشهر وأنظف المشافي، كما كنت أتوجَّه معهم للتسوُّق من متاجر الجملة في أطراف المدينة بسيارة جلال، وكثيرا ما كنت أقضي إجازات نهاية الأسبوع في نزهة في ريف لندن أو في زيارة أحد معالمها مع أسرة هالة. كان محمود نموذجا للفلاح المصري الأصيل؛ فكان شهْما كريما ومِضْيافا، وكان

الكثيرون من معارفه يفدون إلى لندن لأسباب مختلفة؛ فكان يعيش مع كل واحد حكايته ويُشاركه في كل تنقّلاته وتحرّكاته ما دام موجودا هنا في إنجلترا. وكثيرا ما كان يستضيف أصدقاءه وأبناء بلدته القادمين إلى لندن في منزله.

أما ضيوف جلال فكانوا نوعا آخر؛ فمعظمهم من تجّار الأخشاب وصنّاع الموبيليا من دمياط فهو يستضيفهم في منزله في معظم الأحيان، ويعمل على قضاء حوائجهم وإنهاء صفقاتهم، ومعظمهم لا يلمّ بأي لغة بجوار لغة أهل دمياط المميَّزة التي لا تخطئها الأذن.

بدأت في التسجيل للدراسة بمساعدة صديقتي، وهو ما وفَّر لي فرصة لتغيير الإقامة لتصبح إقامة دراسة بدلا من إقامة سائح، وهي تسمح بالعمل لعدد من الساعات مما قنّن عملي بهارودز. اتسعت دائرة معارفي من المصريين وغيرهم، وكانت عائلة فواز دائمة السؤال عنّي بالتليفون، كما كان تليفون فريد لا ينقطع عني.

دخل الصيف إلى لندن، وزاد معه عدد العرب القاصدين لندن لأسباب مختلفة، وزاد البيع في قِسم الماكياج في هارودز، كما زادت جولاتي بالمحل مع غير الناطقين بغير العربية، وصرت أرى أشكالا وأنماطا أكثر اختلافا وتنوُّعا. مرّ على وجودي بلندن حوالي خمسة أشهر أصبحت أتعامل مع جميع المفردات حولي جيّدا من مواصلات وأشخاص وجهات... وما إلى ذلك. زاد دخلي مع دخول فصل الصيف وزيادة مرتادي لندن من أبناء مختلف الجنسيات؛ وعلى رأسهم العرب.

اتصلت بي أم فواز لتطلب لي ترتيب حجز شقة ومساعدة أسرة صديقة لها من أربعة أفراد ترغب في الحضور إلى لندن الأسبوع القادم للنزهة والتسوُّق

لمدة أسبوعين. أخبرتني أن السيدة وزوجها لا يعرفان الإنجليزية، وأن صحبتي لهما سوف يترتَّب عليها عائدا ماديا، وأنها تُقدِّر لي رفض المقابل المادي في حالة تجلها، وحيث إن كثيرا من أبناء بلدهم يستعينون بمن في بريطانيا للقيام بدور المساعدة في إنجاح مثل هذه السفرات؛ فإنها رأت أنني أوْلَى بالقيام بهذا الدور مدفوع الأجر. فكَّرت في الأمر ووافقت، لماذا لا، أليست وسيلة حلالا لكسب دخل إضافي، بلى.. علمت موعد وصول الضيوف والمبلغ المخصَّص للإيجار طبقا لتصوُّرهم.

بدأت جولة جديدة بالنسبة لي؛ فمررت على محال إيجار الشقق المنتشرة بشارع إدجوار رود، معظم ملاكها والعاملين بها من العراقيين وباقي الجنسيات العربية الأخرى. دخلتُ عالما جديدا لم أكن أتصوَّر أنه موجود، كانت أكشاك التليفونات الحمراء ذات الزجاج المقسَّم على الطريقة الإنجليزية تُعلن عن ترحيبها بأبناء العرب؛ فقد وُضع على زجاجها عدد كبير من كروت الدعاية لراغبي المتعة الحرام، وكثير من هذه الكروت قد زُوِّد بصور الفتيات أو السيدات اللاتي يعرضن أجسادهن عارية في هذه الكروت التي تزيلٍ عادة بأرقام التليفونات.

الكروت مكتوبة بالإنجليزية وأحيانا بالعربية، وقد أضيفت إليها كلمات وعبارات الإغراء، ولإقناع الزبون أن جميع طلباته من فتيات المدارس موجود لديهم، كما كان أحيانا ينصّ الكارت على نوعيات مختلفة من الجنسيات المرغوبة في مثل هذه العلاقات. أما في المكاتب؛ فتوجد المجلات والمطبوعات الدالة على أشهر القوَّادات هنا في لندن؛ مثل أم النواف وأم فلان.. وغيرهما، وقد تفنَّنَّ في عرض إمكانياتهن في إرضاء العملاء، وتوجد هذه المطبوعات بجوار المطبوعات الخاصة بمعالم المدينة سواء بسواء. كانت كل الخدمات تُقدَّم في هذه المحال بدءا من إيجار الشقة وانتهاءً بما

يأتي على بال السائح العربي، حتى شراء الشقق والمحال وتسهيل الهجرة يتمّ عن طريق هذه المكاتب.

كان عليَّ أن أرى مجموعة من الشقق حتى أختار من خلالها، وكان عليَّ أن أدخل كثيرا من هذه الشقق وهي مشغولة بالزبائن قبل إخلائها، كانت هناك حكاية خلف كل باب، لكني كنت أتفحَّص الشقة بسرعة مع زياد أحد مندوبي المكتب الذي استقريت على التعامل معه.

استأجرت شقة من غرفتين في عمارات تقع وسط الشارع تُسمَّى بارك وست(Park West)، وهي مجموعة من العمارات تستخدم معظم شققها من أجل الإيجار المفروش القصير المدة للسيّاح العرب متوسّطي القدرة المالية. اتفقت مع المكتب أن تكون عمولتي عشرة بالمائة من الإيجار المطلوب، على أن يكون الإيجار بالنسبة لي مبلغا مميَّزا لصالح الساكن، وقد تفاهمت مع صاحب المكتب حسان أن هذا العمل قد يستمرّ مع آخرين، وأنني غير راغبة في النصب على الناس، ولكن مجرد المنفعة المتبادلة والكسب الحلال.

كان رجلا عاقلا فَهِم ما أعينه، وبدأت أتعامل معه في كثير من الأحيان والطلبات، أعطاني حسان مجموعة تليفونات لبعض السائقين العرب الذين يمكن الاعتماد عليهم في التوصيل بدلا من استخدام التاكسي الأسود التقليدي، الذي تبلغ تكلفة استخدامه أكثر من ضعف ما يدفع لهؤلاء، بالذات في المسافات الطويلة مثل المطار. اتصلتُ ليلة وصول الضيوف بأكثر من سائق ممن أحمل أرقامهم، وأخيرا اتفقت مع أحدهم ويُدعَى مروان فلسطيني الجنسية، يملك سيارة ذات ستة مقاعد، على أن يُقابلني في صالة الوصول بالمطار لمصاحبة الوافدين إلينا. وكنت قد اشتريت كتابا لمعالم لندن باللغة العربية منذ يومين، وصرت أقرأ فيه حتى أنجح في مهمتي الجديدة التي اكتشفت أنني أؤدِّيها وأنا مستمتعة لما كان لي من حب فطري

منذ الطفولة للسفر والترحال، ولم يكن لي سبيل إليهما في هذه الأثناء. ذهبت إلى المطار مستخدمة قطار الأنفاق، وعند خروج الأسرة كنت أنتظر. وقد أخذ مني مروان لافتة كتب عليها اسم رب الأسرة، وجلست على الكافتيريا القريبة أرقبه حتى خرجت الأسرة. لم تكن الأسرة القادمة تُشبه أسرة فواز، أو هكذا أحسست لأول مرة، انطلق بنا مروان من المطار إلى حيث الشقة المستأجرة التي كنت قد تسلّمت مفتاحها صباحا قبل الذهاب إلى المطار حتى لا يكون هناك أي نوع من المفاجآت، وقد دفعت لحسين جزءا من الإيجار على أن يتمّ دفع باقي الإيجار والتأمين عند وصول الزبائن، وكخدمة ومجاملة لي ورغبة في استمرار التعامل معه أعطاني مفتاح الشقة لاستقبالهم بها فور وصولهم.

كنت أنا ومروان نتبادل دور المرشد عن لندن ومعالمها وما ينبغي زيارته فيها، وكذلك عن أماكن التسوُّق واللهو أيضا للأطفال، طوال الطريق من المطار إلى الشقة بإدجوار رود. قام مروان بإنزال الحقائب إلى مصعد العمارة، وقد صعدت مع السيدة زهيرة إلى الشقة، وتبعنا زوجها والأولاد والحقائب. كانت السيدة بدينة وقليلة الكلام، وكذلك زوجها الذي اصطحبته إلى مكتب حسان لكتابة العقد وتسديد المبلغ المطلوب، ولأستردّ ما دفعته وعليه عمولتي. مررنا على أحد المكاتب بجوار مكتب حسان لتفعيل تليفون محمول للشيخ سعد حتى أستطيع التواصل معه.

عدنا من جديد للشقة حيث الزوجة والأولاد الذين تعبهم طول السفر وكانوا يرغبون في الراحة: فأخبرتهم أنني سوف أنصرف على أن أكون في انتظار تليفون لتحديد زيارة لترتيب الأسبوعين، وتركت لهم دليل لندن العربي للتصفّح والعلم.

كان موعد عملي في هارودز قد أزف؛ فتحرّكت سريعا من أجل الوصول في موعدي. قضت الأسرة العجيبة الأسبوعين في كسل شديد أراحني، وجعل مهمتي أيسر مما تصوّرت، وقد ازددت خبرة بهؤلاء الناس. اصطحبتهم إلى متحف الشمع المسمّى ب"مدام توسو" (Madame Tusu museum) نِسبة إلى سيدة فرنسية كانت تذهب إلى المقصلة إبان الثورة الفرنسية لتعود بسلة وقد ملأتها رءوسا بشرية قد قطعت، وتقضي ليلها في صناعة تماثيل من الشمع لهذه الرءوس.

كانت زيارتي للمتحف هي الأولى لي؛ حيث اصطففنا في طابور طويل أمام شباك التذاكر، ولدى الدخول رأينا صورا وتماثيل لصاحبة الاسم -مدام توسو- تجوّلنا بين تماثيل لمشاهير العالم من الفنانين كمارلين مونروو وجمس بوند... وغيرهما، وكثيرا من الساسة؛ منهم بونابارت وأنور السادات وأعضاء الأسرة المالكة في بريطانيا... وغيرهم، وقد صُنعت في منتهى الدقة والإتقان، كما يوجد قطار في شكل النصف الخلفي من تاكسي لندن الأسود يتجوّل بالزائر عبر تاريخ لندن ليستمتع بما قد لا يُشاهده في مكان آخر حول تاريخ المدينة. أرشدت السيدة إلى محل إفانز للمقاسات الكبيرة بشارع أوكس فورد الذي يقع قريبا من مسكنهم، وقد أجريت اتفاقا مع المحل للحصول على جائزة لدى قيام مصاحبي بشراء جيّد من المحل. كان الرجل ينظر إليّ نظرات غير مريحة ولولا زجري له لصار الأمر تحرّشا صريحا.

عاد بهم مروان إلى المطار بعد أن ودعتهم وتقاضيت ما ارتضيته؛ فكانت النتيجة النهائية جيّدة.

أخبرني فريد أنه آتٍ إلى لندن في زيارة خاطفة بعد يومين، لم أعلم أنه كان قد قرّر المجيء من أجل منحي حريتي وطلاقي من زواج لم يتم، ذهبت لاستقباله بالمطار بعد أن قرّرت عدم تقديمه لمجتمعي الجديد، طبعا كيف

وماذا أقول عنه لأولئك الناس الذين أصبحت قريبة منهم؟ أأقول إنه فجأة أصبح لي زوج بهذه الهيئة.. كيف؟ وأين كان؟ ولماذا لم أخبر عنه حين بدأت أتعرّف عليهم؟ ولماذا لقب أرملة؟ ولكنه كان كعادته معي كريما محيطا بما بين السطور بقدر ما كان حرجي من أن يعرف مجتمعي الجديد علاقتي بفريد بقدر سعادتي برؤيته من جديد.

وفي المطار تعانقنا بقدر حرمان دام شهورا عدة، فلم أكن أتحمّل أن تمر ثلاث ليالٍ دون أن أراه، وذلك طوال العامين الماضيين، ورحت أسرد له ما لم يستطِع أن يحمله له تليفوني من أخبار وتطوّرات. عَلِمت منه ونحن في قطار الأنفاق أنه قد حجز غرفة لدى ماهر في الفندق، وأنه لن يُقيم معي، أحسست بارتياح لم أستطِع أن أبديه له، ولكني بادرته بأنني لن أستطيع الحضور إلى غرفته بالفندق فالجميع هناك يعرفني، أخبرني أنه ليس من أجل ذلك جاء، ولكنه جاء من أجل أن يمنحني حريتي، لم أضع يدي على فمه كما فعلت قبل ذلك، ولكني صمت راضية مرتاحة لما يقول، وأن علينا احترام طبيعة الأشياء وتغيّر الأوضاع دون إسراف في مقاومة ظروف جديدة قد طرأت على حياتي.

أسهب فريد في دفع مبرراته بأنه لا يرغب في أن يغلق عليَّ بابا قد يكون فيه سعادتي؛ فبالتأكيد بوجود هذه العلاقة التي أصبحنا نحن الآن مستقرين على أنها زواج حقيقي دون مأذون ولا أوراق ولا بداية ولا زغاريد، ولكنها حقا كانت كذلك.

وبأن وجود هذه العلاقة توصد الباب أمام كل علاقة جديدة قد تنشأ بيني وبين رجل جديد قد يحمل عنّي بعض أعباء الحياة في مستقبل لا يعلم أحد عنه شيئا إلا الله. ورددت عليه بأنه لولا خوفي على مستقبلي ونجلي، ولم أرِد أن تكون علاقتي به هي شريان الحياة الوحيد لي الذي إذا قُطع أصبحت مرة

أخرى في مهبّ الريح، لما تركته وهاجرت وأصررت على أن يكون عملي ودخلي منه هو سندي الأوّل بعد الله عز وجل.

كانت كلماته العاقلة ومبرراته المنطقية ترياقا يشفي جراحي، فلم أكن أستطيع أن أتحمَّل مثل هذه الكلمات منذ ستة أشهر مثلا. فقد كان هو محور حياتي، وقد حامت طموحاتي حول عالما قدَّمه لي، وفتح لي أبوابه على مصرعيها، لم أكن في هذا الوقت أستطيع أن أنفصل عنه. لقد كنت جنينا، والآن وقد انفصل حبل المشيمة عن سرتي.. أتقبَّل هذا بكل هدوء، بل وبقناعة، وأحيانا بارتياح.

اقترب القطار من محطة نزولي، فقد كان عليَّ أن أذهب إلى عملي في هارودز، واتفقنا أن يكون لقاؤنا في الغد لنتقابل ظهرا، ويكون ركن المتحدّثين في حديقة الهايد بارك Hide park هو هدفنا. لم يكن طلاقي هذا من فريد كالذي يحدث عندنا في مصر، فلم يكن مصاحبا للصراخ والعويل وخراب البيوت، ولكنه كان هادئا أنيقا تبعه لقاءات من أجل تضميد الجراح. أدركت أن حاجة المرأة للرجل من أجل أن يؤنس وحدتها، وأن يكون لها وليفا حانيا وصديقا وفيًّا هي حاجة أكيدة وضرورية، ولكن حاجتها إليه من أن يكون مصدر دخلها ورزقها، وتحكما في قوتها وقوت أبنائها منه شيء صعب جدا، ولهذا يكون البكاء والعويل عند انفصام علاقة الزواج التي يتبعها تقصير مادي قد يعصف بمستقبل السيدة وأبنائها أحيانا.

يبدو أنني كنت أحب فريد بقدر احتياجي إليه، وحتى بعد فطامي وتركي هنا وحدي كانت تليفوناتنا المتبادلة يغلب عليها رسائل طمأنة، وكأنني أبلغه بأن حاجتي إليه بدأت تقلّ شيئا فشيئا. لماذا لم يتمسك هو بي ويرفض فكرة هجرتي؟ بل لماذا فتح أمامي هذا العالم الذي لم أكن أعلم أنه موجودا؟!! لم يكن أنانيا معي هل لأني كأنثى لم أملأ عينيه؟ أو أنه زهد فيَّ، لا فإنني

أعلم أن شكلي ومظهري مطمع أكيد، وأن علاقتي الحميمة به كانت على مستوى رائع كان يرضيه قبل أن يُرضيني. هل إن حظي أوقعني في رجل كريم لم يوثر متعته على مستقبلي؟ هل حضوره الآن من أجل أن يعلنني أنه أصبح زاهدا في مناورة بشكل ما من أجل استعادتي إليه؟ بالتأكيد لا. كان يستطيع أن ينزل عندي أو يختار فندقا آخر. ولم يكن في نيتي أن أمتنع عنه بل بالعكس، لقد أعددت نفسي من أجل أن يضمّني حضنه، وأن أغمض أعيني وأنا مستسلمة له لنعيد ليالي جميلة قضيناها وكأننا جسد واحد.

ظلَّت ذكريات ثلاثين شهرا، هي عمر العلاقة بيني وبين فريد وهي أهم ثلاثين شهرا في حياتي تطاردني طوال يومي، راحت الأفكار تتزاحم في رأسي من جديد.. ماذا أقوله له غدا؟ هل أقوال له إنني أرفض هذا الطلاق؟ أم أستسلم للأوضاع الجديدة وما يخبُّؤه لي القدر، وهل القدر هنا في بلاد الغرب مثل القدر عندنا؟ بالتأكيد.. لا. إن المجتمع هنا قد تحمَّل كثيرا من نوائب القدر؛ فهنا معاش للبطالة لمن كان قدره أنه لم يجد عملا يقتات به لنفسه. وإن المجتمع هنا قد يحمل المريض الذي كان القدر قدَّر له أن يُصاب بمرض قد يُفقده ثروته، أو لا يستطيع الإنفاق على تكاليفه عندنا في مصر.

وإن المجتمع هنا يقبل المطلقة والأرملة، ويعلِّم اليتيم، ويحترم الكبير فيركب المواصلات مجانا، وكذلك مَن هم دون الثالثة عشرة من العمر.

إذن.. لماذا هذه الهواجس والأفكار؟!! إنه رجل برجماتي عملي جاء من أجل إكمال مهمته. خرجت في صباح اليوم التالي الذي كان يوافق الأحد إلى منزل د. هالة في هارو روود، فقد كنت رتَّبت لعمر قضاء يوم مع أولادها في حديقة الحيوان توجسا لاحتياجي لقضاء مزيد من الوقت بين أحضان فريد. ولكني سوف أقضى باقي يومي معه في حديقة كالخطاب.

تقابلنا في ركن المتحدِّثين، وهو مكان من الحديقة الشاسعة (الهايد بارك) الموجودة في قلب المدينة، يقترب كثيرا من ماربل أرش Marble Arch أوّل شارع أوكس فورد، ترى فيه الخطباء من كل حدب وصوب، وقد استعان كل منهم بما يقف عليه ليرتفع ويتميَّز. فهذا يقف فوق سلم نقّال، وآخر يقف على صندوق خشبي، وثالث يقف فوق صندوق زجاجات فارغة.

الكل يتكلَّم: فتجد مَن يتكلَّم في الدين، وبجواره حلقة أخرى لأحدهم يتكلَّم عن حرية زواج المثليين والشذوذ الجنسي، وهناك كثيرون يتكلَّمون في السياسة. أمّا العرب: فتجدهم جميعا من الساسة العظماء فيهاجمون حكَّامهم، ويصبون جامَ لعناتهم على مَن يخالفهم في الرأي أو الفكر أو الأيدولوجية. وكان كثيرا ما يسيطر الجدل والشجار الكلامي على مثل هذه الحلقات الكلامية.

ومن أطرف ما سمعت يومها جدلا صار بين أحد الهنود الذي تجنَّس بالجنسية الإنجليزية، وأحد الإنجليز البيض الذين يمقتون أولئك الذين أصبحوا شركاء لهم في الوطن؛ فكان الجدل يدور حول أي الشعبين أعلى، وتفنّن الإنجليزي في أن يسوق الحجج من أجل إثبات وجهة نظره، ولمّا انتهى، قال له الهندي: تعلم أننا لا يوجد عندنا مكان لأداء الحاجة، وأننا عندما نقضي حاجتنا في العراء في بلدنا؛ فإننا نستعين بأوراق الشجر لاستعماله كورق تواليت كما تفعلون هنا، بعد ذلك نجمع هذه الأوراق لنُصدِّرها إليكم، وقد كتبنا على عبواتها أجود أنواع الشاي!!

قضينا وقتا طويلا متجوّلين بين خطباء الحديقة، وقد كان يوما مُشمسا جميلا، لم تتطرَّق أحاديثنا إلى أي أعماق، أعطاني فريد إيجار شقتي، وأخبرني أنه سوف يقوم بتحويل الإيجار إلى حسابي كل ثلاثة أشهر.

همس لي فريد في أذني بلفظ الطلاق حتى يستكمل شكل وطبيعة الموضوع الذي حضر من أجل إتمامه، اهتززت من داخلي، وأومأت له برأسي مستسلمة لما قرّره؛ فحضنني وكأنه أراد أن يزيد من قوتي وبأسي، كان حنانه في هذا اليوم فيّاضا، وكأنه يودّع هذه العلاقة الجميلة في أحلى وأشيك وداعا عرفه المحبُّون. لم يكن من النوع الرومانسي، ولكنه كان عمليا في كل تصرّفاته إلا هذا اليوم؛ فكان حنانه وعطفه عليَّ بلا نهاية. تناولنا طعام الغداء المتأخِّر في أحد مطاعم إدجوار رود العربية القريبة منّا، وسلَّم عليَّ وجفف دموعي، وافترقنا، على أن نبقى أصدقاءً. حمدت الله أنني لم أملأ الأرض صراخا ولطما، كما فعلت عواطف جارة أمي عندما أتاها المحضر مُعلنا أنه جاء من أجل أن يُسلِّمها ورقة الطلاق، كان عمري سبع سنوات، ولم أكن أعلم ماذا تعني كلمة الطلاق، وما هذه الوريقة التي حوَّلت سكون حارتنا إلى صراخ وعويل ولطم للخدود وشقّ للملابس والجيوب. ظلّ هذا المشهد يُطارد مخيّلتي، كان مرسوما بقوة في ذاكرتي، الآن فقط أستدعيه لكي أطرده من ذاكرتي، لقد غيّرت حياتي، لقد طُلِّقت وتناولت العشاء مع طليقي بعد أن طلّقني وحضنني، إنني لست حاقدة عليه، ولكنه كبر في مخيّلتي، وصرت أقول لنفسي إنه لولا البحار والأراضي الشاسعة بيننا ما تركت هذا الرجل يبتعد عني قط.

كانت الأيام تمضي أعد الليالي، وأزداد اندماجا في المجتمع الجديد، أصبحت أدرس الطب من جديد، أعمل في المستشفى ليومين كل أسبوع. زادت علاقاتي بالوافدين على لندن ممن استطعت أن أقدِّم لهم الخدمات من مسكن ومشتريات وكل ما يحتاجون إليه هنا، دخل عمر المدرسة، وأصبحت إقامتي رسمية بناءً على الدراسة التي انخرطت فيها بجانب عملي الآخر

المتنوّع بين هارودز ورعاية الوافدين. وعندما مضى على إقامتي في لندن عامان كان دخلي قد زاد كثيرا فوق احتياجاتي، اشتريت سيارة صغيرة مستعملة، ودخلت مَدرسة لتعليم القيادة؛ حيث القواعد تختلف عنها في مصر وعجلة القيادة على اليمين، أصبحت أتحرّك بسيارتي في كثير من الأحيان التي سرعان ما استبدلتها بسيارة جديدة ذات ستة مقاعد لأتمكّن من التحرّك بعدد معقول من الركاب.

أحسست أن ساعات عملي في هارودز أصبحت عبئا عليّ، ولم يكن إيرادي من عملي هناك يدعوني للتمسُّك به؛ فتركت العمل به؛ من أجل مزيد من الوقت مع الوافدين من العرب إلى لندن. وفي أحد الأيام أثناء جولتي في إدجوار رود، وجدت أحد محال تأجير الشقق وقد كُتِب عليه إعلان لبيعه، لم يكن لديّ المال الكافي لشراء المحل، ولكن نظام الرهن العقاري مكّنني من مشاركة صاحب المحل الذي كان يرغب في بيعه للتقاعد؛ فقد أقنعته بأن أقوم بإدارة المحل وتوصيل الأرباح إليه؛ حيث كان ينوي العودة إلى بلدة لبنان. اتفقنا على تفاصيل البيع، وكان نصيب شريكي جورج قد مكّنه من شراء إحدى الشقق المجاورة التي عهد إليّ بإدارتها، ليكون إيرادها دخلا ثابتا له، بالإضافة إلى نصيبه من إيراد المحل.

تطوّرت خدماتي، وأصبحت بين لحظة وأخرى أدير عملا كبيرا أدّى بي إلى أن أتوقّف عن دراسة الطب مكتفية بالماجستير في أمراض الأطفال الذي حصلت عليه أخيرا، كان لديّ اثنان من الموظفين العرب؛ أحدهما رياض من العراق والآخر ياسر من مصر، بالإضافة إلى فتاة وشاب من الإنجليز. كان جورج قليل الحضور إلى المحل؛ فقد كانت رغبته في التقاعد حقيقية، فلم يكن لديه أبناء، وقد ساعدني في البداية على تسلّم مقاليد الأمور بالمحل في سهولة وسرعة. كانت لديه سُمعة جيّدة، وكان كثير من عملائه يثقون فيه

ثقة كبيرة؛ فكان لدينا دائما عمل متواصل في تأجير مجموعة من الشقق عهد إلينا أصحابها المقيمين خارج بريطانيا بذلك، بالإضافة إلى الوساطة في بيع وشراء العقارات، وخدمات الضيافة التي أضفت إليها خدمات الطب التي كنت أقوم بها من توجيه ومشورة للراغبين في ذلك دون الحصول على أجر أو عمولة عن هذه الخدمات الإنسانية، وإن كان يصاحب ذلك حصول أهل المريض على باقي الخدمات مدفوعة الأجر من مسكن وانتقالات وخلافه.

رفضت عروضا كثيرة للزواج؛ فقد كنت أقارن كل مَن تقدَّم لخطبتي بفريد الذي لم تنقطع اتصالاته، وقد مكَّنني دخول المحمول إلى مصر بالاتصال به في أي وقت. كان أيضا يُرسِل لي كثيرا من أصدقائه ومعارفه القادمين إلى لندن لأُقدِّم لهم خدماتي.

كنت أقيس نجلي عمر بالشبر، وأحلم باليوم الذي أستطيع أن أتأبَّط فيه ذراعه ليكون رَجُلي. اشتريت شقة بنظام الرهن العقاري mortgage مقسَّطة على خمسة عشر عاما، وانتقلت إليها بعد تجديدها، وأصبح لولدي الذي أصبح في العاشرة غرفة خاصة به، وللسيارة مكان بالجراج.

لم تقتصر حياتي على الجانب العربي من لندن، ولكن كان عليَّ التقرُّب من الإنجليز ومعرفة المجتمع أكثر؛ حتى لا ينشأ نجلي غريبا عن المجتمع الذي زرعته فيه. كنت أقضي جميع أوقات فراغي وإجازاتي غير المنتظمة مع أهل أصدقاء وزملاء نجلي. أتاح لي احتكاكي بأهل أصدقاء عمر معرفة الكثير عن المجتمع الإنجليزي، فقد كانت قصص التراث والأمثال الشعبية الإنجليزية شديدة التعبير عن هوية وطبيعة أهل هذا البلد، وقد صرت أستعملها وأصبحت جزءا لا يتجزَّأ من مفردات حديثي. كان الإنجليز في لندن قليلين؛ حيث سكنها كثير من الوافدين أمثالي، أما العائلات الكبيرة والعريقة هنا؛ فهي عالم آخر من الأرستقراطية الإنجليزية الأصيلة، وهذه العائلات غالبا ما

تكون من أصحاب المصانع العملاقة أو الأعمال المتعدّدة والعقارات. نظام الوراثة هنا وفي كثير من بلاد الغرب يتوقَّف على الوصية؛ فيتمّ توزيع التّركات طبقا للوصية التي يتركها المتوفَّى. وفي حالة عدم وجود وصية؛ فإن أموال المتوفَّى تؤول للدولة. وإن كان العرف هنا يقضي بأن يكون الأخ الأكبر هو الوارث للثروة للمحافظة عليها دون تفتيت؛ حيث يقوم بتوزيع الدخل على باقي أفراد العائلة.

تحرص العائلات الكبيرة على توازن الأعمال والمناصب بداخلها؛ فمثلا يختار أحد الأعضاء للعمل في قطاع البنوك والمصارف، كما أنه يجب على بعض أفراد العائلة الالتحاق بالجيش، كما تحرص أيضا على أن تضمّ الدبلوماسيين؛ حيث إن السفير البريطاني أو المندوب السامي في العصور السابقة لم يكن له مرتَّب من الدولة حتى الستينيات من القرن الماضي، فقد كان العمل كسفير أو مندوب سامي بمثابة شرف ترغب العائلات الكبيرة أن تحظى به لخدمة العرش، وأن على العائلة أن تقوم بتمويل احتياجات هذا المنصب الرفيع. ولا يوجد في إنجلترا دستور مكتوب، ولكن علاقات الحاكم بالمحكوم، وكذلك علاقات السلطات بعضها بعضا هي من الأمور المحفوظة والمقدَّسة والمتعارَف عليها دون نصوص مكتوبة.

للإنجليز هوايات غريبة؛ منها متتبِّعو القطارات والطائرات؛ فقد رأيت في أحد الأيام مجموعة من الإنجليز المتقدِّمين في العمر، وقد حمل كل منهم دفترا وقلَما، وراحوا يتنقَّلون بين أرصفة محطه القطار مسجِّلين أرقام عربات القطارات. اعتقدت أوَّل الأمر بأنهم مِن المفتِّشين، ولكن كبر سِنّهم وتحرّكاتهم دعتني للوقوف على الأمر. علِمت أنهم من أصحاب هواية تتبُّع عربات القطار، ذلك أنهم في جولاتهم في أي مكان يرصدون العربات من خلال الرقم الخاص بالعربة الذي لا يتكرّر، ويكتبون أين ومتى وجدوا هذه العربة، ويتمّ

تفريغ هذه الملاحظات في سجلات يحتفظون بها. وكذلك يتمّ رصد الطائرات من خلال اسم الطائرة بوساطة نظارات مكبِّرة، وقد تمّ القبض على مجموعة من راصدي الطائرات في إحدى الدول أثناء ممارستهم لهذه الهواية العجيبة بتُهم التجسس، وكادت أزمة دبلوماسية تنشأ بين هذه الدولة وإنجلترا التي أسهب سفيرها في شرح هذه الهواية العجيبة للقائمين على هذه الدولة.

ومن الروايات الشهيرة التي تروى عن ذكاء ودبلوماسية الملكة فيكتوريا أنها كانت قد دعت أحد زعماء قبائل إفريقيا للغداء في القصر الملكي، قام زعيم القبيلة بمَصْمَصة عظام الدجاج الذي أمامه، ثم قذف العظم خلفه بعد الانتهاء من الأكل؛ فما كان من الملكة إلا أن قامت هي أيضا بقذف العظم خلفها حتى لا يشعر الضيف بأنه ارتكب عملا عجيبا، وقد تبعها كل مَن كان على المائدة بقذف العظام حول المائدة. وقد عَلِمت أن مَلِك مصر السابق فاروق قد قام بنفس التصرُّف عندما شرب أحد الحُكّام الذي كان ضيفا على مائدته من الإناء الذي كان به ماء دافئ مع ليمون لغسل الأصابع؛ فإذا بالملك يقوم بالشرب كالضيف، ويُومئ لرجال بلاطه فيتصرَّفون كما فعل الملك.

أصبحت علاقتي بعملي روتينية بعد أن حوَّلت إقامتي من طالبة إلى صاحبة عمل، كان عليَّ أن أحل محل جورج تماما في المكتب، وأن أثبت لجهات الهجرة أنني أدفع قدرا معلوما من الضرائب، كما كان عليَّ إثبات تعييني عددا معيَّنا من ذوي الجنسية الإنجليزية؛ وذلك للحصول على الإقامة الدائمة تمهيدا للجنسية التي حصلت عليها بعد ذلك. كان عالمي القريب من أبناء العرب يُواسيني عن تركي لوطني، ويعوِّض إحساسي بالغربة، رغم أن أيامي في مصر لم تكن أياما سعيدة، ولكنه وطني الذي وُلِدت فيه ونشأت

بين أحضانه، وظلّ يحيا بين جوارحي، حتى في الأوقات التي انقطعت عن زيارته لمدة طويلة.

بعد خمسة أعوام من شراكتي لجورج اشتريت باقي نصيبه وأصبحت صاحبة المكتب وحدي. زادت مكاسبي من عملي، وأصبحت أشتري العقارات وأطوّرها وأجدّدها وأعيد بيعها، وهو ما زاد فرصي في الكسب.

أصبحنا أنا ونجلي نتصرّف كالأغنياء؛ فتغيَّرت هيئتنا، وأصبحت أقصد محال الملابس ذات الماركات العالمية المعروفة، واشتريت سيارة بورش ذات مقعدين وسقف يُطوى عند اللزوم، وأصبحنا نقضي إجازاتنا في إسبانيا أو الجنوب الفرنسي، وأحيانا على ظهر سفن عملاقة تجوب بنا أنحاء البحار إلى الموانئ المختلفة، وقد دخلت عليه تطوّرات البلوغ، فكنت أشعر بزيادة احتياجه لأب لم يكن على قيد الحياة، أمّا أنا فلم أكن قريبة منه بالقدر الكافي لانشغالي بعملي الذي ظلّ يأخذ كل وقتي، لكن كان هناك أيام قليلة كنت أسرقها من أجل إجازة مع ولدي.

لقد جئت إلى هذه البلاد من أجل مستقبل أفضل لنجلي الذي كنت أراقب تطوّرات حياته، وقد أصبح أطول مني، وقد تحقّق أملي في أن أتأبّط ذراعه عندما نكون معا، ولكني الآن وأنا أعمل ولا أشعر بأنه يحتاج إلى هذه الثروة التي أصبحت أمتلكها؛ فقد التحق بكلية الهندسة بإحدى جامعات بلجيكا، وكنت قد اتفقت معه منذ التحاقه بالجامعة على زيارة شهرية، إمّا أن يقوم بها إليّ أو أذهب أنا إليه؛ فقد كانت المواصلات من أسهل ما يمكن بعد أن تمّ توصيل الجزيرة البريطانية بأوروبا، ولم يعد هناك أي قيود على انتقال مواطني الدول الأوروبية إلى بلاد أخرى من المجموعة. تم تشغيل القطار يوروستار Eurostar من لندن إلى باريس وبروكسل وأمستردام، وأصبحت المسافة بيني وبين نجلي في مدينة أنتي ورب Antwerpen تقطع في ثلاث

ساعات على الأكثر بالقطار، كما انتشر الطيران منخفض التكاليف الذي ينقل الأفراد بين مدن أوروبا المختلفة بأسعار قد تقلّ عن أسعار القطار أحيانا.

وفي إحدى زياراتي لعمر بأنتي ورب قدَّم لي فتاته التي كان قد حدَّثني عنها كثيرا. كانت فتاة تخطف القلب؛ فقد تجمّع لديها الجمال والطيبة والبراءة، وهي تدرس الاقتصاد بنفس الجامعة التي يدرس بها ولدي، وهي من سكان أجمل مدن أوروبا الصغيرة وتسمَّى بروج (Brugg)، لا تبعد كثيرا عن أنتي ورب؛ حيث إن بلجيكا تعتبر من الدول الصغيرة ذات حدود مع فرنسا وألمانيا وهولندا.

وجَّهت لي الدعوة مارلين لقضاء إجازة في بلدتها مع أهلها في زيارتي القادمة بعد أن أعود من القاهرة؛ حيث كان عليَّ أن أتوجَّه إلى القاهرة الأسبوع القادم، كما تلقيت مكالمة تليفونية من والدتها لتأكيد الدعوة مع تمسّكهما بأن تكون الإقامة لديهما بالمنزل.

زيارة إلى القاهرة

حضرت إلى القاهرة كي أجتثّ ما بَقِي لي فيها من جذور؛ فقد بلغ ولدي الحادية والعشرين، وآن لي أن أبيع الشقة التي ورثناها أنا وهو عن والده، وظلّ فريد طوال هذه السنوات يُؤجِّرها ويُرسِل لي إيجارها.

استقبلني فريد بالمطار، وتوجَّهنا لتناول عشاء من الكباب والكفتة عند الرفاعي أمام مسجد السيدة زينب. نقلني المكان والعشاء إلى أيام الصبا بحارات القاهرة وشوارعها. فقد كان المكان عبارة عن مطعم صغير، ومجموعة من الموائد والمقاعد، وقد تمّ رصّها في الحارة حول المطعم في جو مصري أصيل، يتجاور فيه روَّاد المطعم من مختلف شرائح المجتمع وتتداخل أحاديثهم، وقد وضع صاحب المطعم مجموعة من صور مشاهير مصر وهم يتناولون طعامهم عنده. وبعد العشاء الرائع، تناولنا طبقا من السوبيا عند الرحماني على الجانب الآخر من ميدان السيدة، كان هذا العشاء بمثابة ترحيب حار من رجل عرف كيف يُعيد إليّ ماضيا طالما اشتقت إليه.

تحرّكنا للإقامة بأحد فنادق وسط القاهرة المطلّة على النيل. لم يكن يربطني بمصر إلا فريد وخالتي العجوز الفقيرة التي حال فقرها بين أن

أستطيع أن أتواصل معها أو حتى أن أزورها زيارة تقرّبني منها؛ فعندما ذهبت إليها في اليوم التالي لوصولي، لم أشعر بأي مشاعر تجاهها وتجاه أولادها؛ لأن الفجوة بيني وبينهم أصبحت عملاقة؛ فجلست معها نصف ساعة، وأعطيتها ما تيسَّر من المال ووعدتها بالمزيد. كان سائق فريد في انتظاري، طلبت منه أن يعرف المكان جيّدا؛ فقد يلزم إرسال بعض الأشياء إلى هذه الأسرة البائسة في وقت قادم.

لم تكد السيارة تتحرك بي حتى أصبت بنزيف من الذكريات. هذا هو الشارع الرئيسي الذي تتفرَّع منه الشوارع للأحواش المختلفة؛ منها مدافن أم كلثوم وعبد الحليم حافظ.. إنه يؤدّي في نهايته إلى كوبري السيدة عائشة حيث سوق الجمعة. فقد كنَّا نشتري كل شيء من هناك، وهناك أيضا يُباع كل شيء بعد استعماله. أمَّا أنا وأمي لم يكن لدينا شيء نبيعه إلا مجهودنا وشباب أمي. شقّ السائق طريقه بصعوبة في هذا الشارع؛ فقد أصبح امتدادا لسوق السيدة عائشة. لم يكد السائق ينحرف بالسياره يمينا في نهاية الشارع بجوار قبر الشهيد حسن البنا حتى صحت فيه:

- ليه يمين؟ الطريق من الشمال.

فأجابني:

- الطريق بقى اتجاه واحد.

أيقنت الآن فقط أنني لم أعد ابنة هذه المنطقة الفقيرة البائسة بعد.

سارت بي السيارة من تحت كوبري السيدة عائشة يسارا إلى جوار سور مجرى العيون، كل شبر في هذه المنطقه كنت أعرفه جيّدا؛ فقد كان هذا طريقي اليومي في رحلتي للكلية.

طلبت من السائق أن يتجه إلى المعادي حيث كنت أُقيم.. إنه نفس الشارع ونفس الناس، وها هي أبراج عثمان تطل على أوَّل منطقة المعادي، وكأنها الحارس الأمين على هذا الحي الأنيق وكأنها حارس آخر لذكرياتي هناك.

وأفقت على صوت رنين التليفون.. إنه فريد فلم يكن أحد غيره يرنّ على تليفوني المصري الذي منحني إيَّاه عند وصولي إلى القاهرة.

- لسه محتاجه تروحي أي مشاوير؟
- لا يا حبيبي ربنا يخليك.. أنا هارجع على الأوتيل.
- هاعدِّي عليكي الساعة ٨ علشان نتعشَّى في مكان جميل.
- أي مكان يا حبيبي إنت فيه هيكون جميل.
- كفاية بَكَش بقى هتفضحينا قدام السواق.
- أبدا ده بيعتبرك زي أبوه وبيحبَّك أوي.
- يلا سلام.

مرّ عليَّ فريد في المساء، وتوجَّهنا إلى الجيزة لتناول العشاء بمطعم عائم تجوَّل بنا في نيل القاهرة بسحره الذي لا يُقاوَم.

في صباح اليوم التالي، توجَّهت للشهر العقاري لإنهاء إجراءات بيع الشقة، ثم قابلت فريد بمكتبه؛ حيث توجَّهنا بعد ذلك لتناول الكشري بمطعم أبو طارق بشارع شامبليون وسط القاهرة. أكملنا جولتنا في المساء بزيارة شارع المعز من ناحية باب النصر؛ فقد استمتعت كثيرا بهذا الشارع الذي تمّ إعادة تأهيله ليكون منطقة تاريخيه فريدة من نوعها فعلا.. تناولنا عشاءً من ساندويتشات السجق على مائدة بالشارع بمطعم زيزو أمام سور القاهرة ذي البوابات الكبيرة والعتيقة.

عدت بعد ثلاثة أيام قضيتها بالقاهرة، وقد اجتررت ذكرياتي، وقضيت غرضي، وتواصلت مع فريد الذي أصبحت علاقتي به صداقة في أجمل معانيها.

مدينة بـــروج

وعندما حان موعد زيارة مارلين وأسرتها، استقليت القطار من محطة ووترلو Waterloo بوسط لندن إلى بروكسيل، وقد كان اختيار محطة ووترلو ليتحرّك منها القطار إلى فرنسا وبلجيكا وهولندا خاليا من الدبلوماسية تجاه الفرنسيين؛ حيث اقترن اسم المحطة بتلك المعركة التي هزم فيها القائد الإنجليزي نيلسون الذي نُصب له تمثال في أشهر ميادين لندن ميدان الطرف الأغر Trafalgar square نابليون بونابارت الذي انتهت حياته بعد نفيه إثر هزيمته، وقد تدارك الإنجليز هذه السقطة تجاه الفرنسيين فيما بعدُ، وتمّ استخدام محطة أخرى لينطلق منها اليوروستار.

وفي الموعد المقرّر للوصول، كان عمر وصديقته في انتظاري بمحطة القطار midi وسط بروكسل Brussel، وانطلقنا بالسيارة نحو بروج التي وصلنا إليها سريعا.

كانت المدينة عبارة عن جزيرة يُحيطها مجرى مائي من جميع الجهات، لا تستطيع الدخول إلى المدينة إلا من خلال الجسور الموجودة على المجرى، دخلنا من بوابة تُشبه بوابات القلاع القديمة، وما أن أصبحنا بالداخل حتى أحسست أنني في حلم.

الواجهات قديمة جدا، وقد كُتِب عليها تاريخ البناء الذي يرجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر غالبا. الشوارع ضيّقة ونظيفة جدًّا، وقد رصفت معظمها بالبزلت. دخلنا إلى جراج المنزل القريب من مدخل البلدة الصغيرة. كان المنزل قديما ولكنه مجدَّد من الداخل، الفخامة تبدو على كل شيء داخله. لم أكن أعلم أنهم على هذا المستوى من الغنى، لم يخبرني عمر بذلك؛ حيث إن هذه الأشياء لا تهمُّه بحكم تربيته الأوروبية. حمدت الله أنني قد أحضرت هديتين ثمينتين من أحد بوتيكات بوند ستريت الذي يرتاده أغنياء العالم. تعرَّفت على والديها، كان الأب يعمل أستاذا جامعيا بالصيدلية، والأم قد ورثت محلا لبيع المفارش الليسيه الذي تشتهر بإنتاجه هذه البلدة، بالإضافة إلى صناعة الشيكولاته. كانت تتصدَّر غرفة المعيشة صورة بورتريه لجد مارلين يظهر فيها بملابس القضاء حيث كان يعمل، وقد أورث وحيده هذا المنزل الذي يزخر بمقتنيات ثمينة من القرن الماضي من السيفر والكريستوفل والليموج، كما كان الأثاث على مستوى عالٍ من الذوق والأناقه.

استمتعت بالمدينة جدا؛ حيث تجوَّلنا بالحنطور والقوارب بين المنازل؛ فالمدينة تتخلَّلها المجاري المائية مثل فينيسا بإيطاليا، وتطلّ المنازل على هذه المجاري المائية بشكل يجلب الهدوء والراحة.

احتفظت واجهات المنازل والمباني المختلفة بالشكل الأصلي الذي بُنِيت عليه، حتى إنه في بعض الأحيان يتمّ صلب الواجهة الأصلية للمنازل، ويتمّ إزالة المبنى، ثم البناء بناءً جديدا، ويتمّ تركيب الواجهة الأصلية عليه، وكأن المبنى كما هو من مئات السنين. يوجد بالمدينه ثلاثة عشر حنطورا تستعمل من أجل نزهة السياح الذين يقصدون هذه المدينة الرائعة بكثافة عالية. يتميَّز أهل بلجيكا بالطيبة البالغة والتلقائية، حتى إن الهولنديين والفرنسيين

يردّدون كثيرا من النكات على البلجيك، كما يحدث عندنا أن كثيرا من النكات تُروَى عن أهل الصعيد. كما أنهم من أمهر الطهاة، وأن الطعام هنا والحلوى من أطعم ما يمكن، فقد استمتعنا بطعم الطعام المميَّز: سواء ما قُدِّم إلينا في منزل مارلين، أو ما تناولناه في مطاعم بلجيكا عموما.

استرحت كثيرا لهذه العلاقة التي أقامها ولدي مع هذه الفتاة؛ فإن هنا في الغرب كل الشباب لا بد أن يوجد لديهم جيرل فرند (Girlfriend)، وتكون العلاقة بين الشاب والجيرل فرند مثل الزواج عندنا، وفي حالة رغبتهم في توثيق هذه العلاقة من خلال زواج رسمي فلا بأس. عدت إلى لندن بعد قضاء إجازة قصيرة اطمأننت فيها على مستقبل نجلي مع رفيقته.

زادت علاقتي بمارلين التي كانت كثيرا ما تصحب عمر في إجازات يقضونها عندي في لندن، كنت أشعر وكأنني أصبحت أمّا لهذه الفتاة التي مسّت رقتها شغاف قلبي.

الكابـــوس

أخبرتني مارلين في مكالمة باكية بأن عمر قد تعرَّض لحادثة أثناء قيادته لدراجته النارية، وأنه يخضع الآن لجراحة في أحد مستشفيات أنتي ورب، تحرَّكت فورا إلى القطار المتجه إلى بروكسل بعد أن جهزت حقيبة صغيرة باحتياجاتي، وعهدت لأحد موظفي الحجز بمكتبي ترتيب أمر التذاكر حتى الوصول لأنتي ورب، وكذلك ترتيب الإقامة بفندق قريب من المستشفى طبقا لما حصلت عليه من معلومات.

وصلت إلى المستشفى في المساء، ولم تكن اتصالاتي مع مارلين تنقطع طوال الرحلة، كان عمر قد خرج من الجراحة إلى العناية المركزة، وكان التوتُّر والقلق واضحَيْن على مارلين ووالديها اللذين حضرا من بلدتهما القريبة، اطَّلعت على الأشعة وتواصلت مع الممرضة المسئولة عنه، كانت إصابته الرئيسية في الرأس أدَّت إلى نزيف في المخ، وكانت الجراحة من أجل إجراء فتحة بالجمجمة لتصريف الدم ومحاولة وقف النزيف، كان عمر متعرِّضا لإغماءة عميقة دخل بها للمستشفى، لم يكن الوضع مطمئنا؛ حيث إن النزيف يضغط على مراكز حسَّاسة بالمخ، قضيت الليل على كرسي بجواره، فلم أذهب إلى الفندق الذي أبلغته بأن يظلّ حجزي قائما لأستعمل

الغرفة أي وقت. في الصباح لم يكن الوضع أفضل، واقترح أحد الجرَّاحين إعادة إدخاله لجراحة أخرى، اتصلت بفريد لإخباره بما يجري، ذهبت إلى الفندق المجاور لوضع ملابسي، وأخذتُ حَمَّاما أثناء الجراحة الثانية التي استغرقت ثلاث ساعات.

هاتفني فريد عصرا؛ حيث أخبرني أنه آتٍ إليَّ اليوم التالي، ولم يكن الوضع قد تحسَّن بأي شكل بعد الجراحة الثانية، بل خضع عمر لجهاز التنفُّس الصناعي، ظللت بجواره طوال الليل أقرأ في مصحف استعرته من أحد المرضى المغاربة بالمستشفى، لم يكن لي عهد بقراءة القرآن منذ زمن طويل، لكنني وجدتني أقرأ بسهولة، واكتشفت أنني ما زلت أحفظ منه الكثير من السور، كنت بين القراءة أدعو الله بأن ينقذ ولدي مما هو فيه، وأسأله عز وجل بأن لا تكون مصيبتي في نجلي.

هاتفني فريد فجرا من على باب الطائرة القادمة إلى بروكسل، بدأ عمر في تحريك يديه، وقد نسيت الطب وتفاءلت لذلك، استدعتني إحدى الممرضات إلى الخارج لمناقشة غير موضوعية عن حالة عمر، عَلِمت بعد ذلك أنها فعلت ذلك حتى لا أرى ولدي وهو يحتضر، وما أن عدت إلى الغرفة حتى كان ولدي قد أسلم الروح. كانت الأجهزة تشير إلى الوفاة بوضوح، ولكنني كنت أرفض أن أصدِّق ماحدث، ورحت أسأل نفسي: هل أنا في كابوس؟ أم إن الحقيقة أصبحت أشرس من الكابوس؟ تجمَّدت مشاعري، لم تستجِب إليَّ دموعي، تسمَّرت في مكاني، حضر إليَّ أحد الأطباء المصريين الذي يعمل بالمستشفى ويتابع حالتنا منذ عِلمه بوجودي، ساعدني بدوره مع والد مارلين على الخروج من الغرفة والوصول للفندق. قضيت ساعتين من الصمت وحدي وكأنهما الدهر كله، أتاني تليفون فريد لدى وصوله لبروكسل، وإذا بي أنفجر باكية عندما سمعت صوته، علمت فيما بعدُ أن

فريد قد اتصل بصديقه الذي يعمل ملحقا طبيا في باريس، الذي استطلع الأمر من المستشفى، وأخبره أن الحالة ميؤس منها، وأنها مسألة ساعات وتنتهي حياة ولدي. وفي وقت قليل وجدته أمامي في الغرفة بالفندق، جلس إلى جواري وكأنه مبعوث من الخالق كي يُواسيني، كان شعوري نحوه بأنه رجل دين جاء من أجل وداع ولدي، انتابتني موجة من الصراخ والعويل، وإذا به يضمّني ويردّد بأنه لكلِّ أجَلٍ كِتّاب، وأن الله قد وعد الصابرين من الثكالى أمثالي ما لا عين رأت في الجنة.

أخذتني إغفاءة نوم بعد أن أخذت حبتين من المهدِّئ، وإذا بي أُنادي على فريد كي يأخذني إلى الحمام حيث لا تقوى رجلاي على حملي، يتحوَّل إلى أم حانية فقد خَلَع عنّي ملابسي، وسندني وأجلسني إلى قاعدة الحمام حتى انتهيت، وقال لي:

- تحيّي أساعدك تستحمي.

ولم أشعر بأي حرج في أن أتجرَّد من باقي ما ستر صدري أمامه، وأجلسني في البانيو وساعدني، ولم أشعر أنه كان يتعامل معي كأنثى كسابق عهدنا في هذا اليوم، لم يكن ينظر إلى جسدي العاري الذي ما زال ممشوقا وما زال مرغوبا. جفَّف جسدي كما كانت تفعل أمي، وألبسني ملابس أخرى، ولم أرَ في عينيه إلا حنانا دافقا تجاهي، نمت ليلتي بجواره، وكأنني أنام بجوار أمي في ليالي الشتاء الباردة بالبساتين.

قضى معي فريد ليلتَيْن بأنتي ورب لم يُفارقني فيهما ساعة، حتى توجَّهنا سويا للقاهرة بعد أن اتصلت بأهل ولدي لأدفنه بجوار والده.

تسلَّمنا الجثمان بعد أن تمّ تجهيزه بوساطة مسلمين مغاربة، دلَّنا عليهم أعضاء السفارة في بروكسل، حضروا إلى المستشفى من أجل ذلك بعد أن

اتصل فريد بهم، ورفضوا تقاضي أي أموال حيث إنهم يقومون بهذا الدور لوجه الله. توجَّهنا به على طائرة مصر للطيران إلى القاهرة، وصلنا ليلا، كان في انتظارنا بعض الأصدقاء واثنان من أقارب المرحوم نافع كنت حريصة على أن تستمرّ علاقتي بهم، وكذلك نجلي حتى لا تنقطع علاقة ولدي بعائلة أبيه الكبيرة. تسلَّمنا الجثمان من قرية البضائع طبقا لما هو يُعمل به في مثل هذه الحالات، وتوجَّهنا إلى أحد مستشفيات مصر الجديدة لترك الجثمان حتى الصباح بثلاجة المستشفى.

قضيت ليلتي في أحد فنادق مصر الجديدة، وتوجَّهنا في الصباح إلى المستشفى؛ حيث تم إعادة تغسيل وتكفين ولدي. صلينا عليه صلاة الجنازة بعد صلاة الظهر بمسجد السيدة نفيسة، ثم تحرّكنا إلى مقابر عائلة نجلي وواريناه الثرى.

قضيت بالقاهرة أربعة أيام أخرى للراحة، لم أهنأ فيها بالنوم إلا بالعقاقير، لم يتركني فريد خلالها إلا قليلا، ولم أشعر في لحظة أن هذا الرجل ما هو إلا أب وأخ أو صديق من زمن آخر. قرَّرت السفر إلى لندن لترتيب بعض الأوضاع ثم العودة للقاهرة سريعا، فقد تركت بها قطعة منِّي تحت الثرى.

حضرت مارلين إليَّ بصحبة والدَيْها بعد عودتي من القاهرة، أخبرتني أنها تحمل جنينا من عمر الذي لم يكن يعلم بذلك قبل وفاته، وأنها ترغب في الاحتفاظ به ليكون ذكرى حيَّة من حبيبها. رحت أفكِّر في هذا الحفيد الذي سوف ينضمُّ إلى قائمة الأيتام الذين كُتِب عليهم ألا يُشاهدوا آباءهم مثلي أنا وولدي.

لكن اليتيم هنا في أوروبا من نوع آخر؛ فحقوق الطفل تكفلها الدولة منذ أن يولد، وفي بعض الدول يتحدَّد له مرتب تحصل عليه الوالدة أو مَن يُربّيه، التعليم الأساسي مجانا، والمجتمع يكفل له حياة كريمة. ولا يكتب عليه ما كُتِب عليَّ من المرمطة والخدمة بالمنازل. وهل سأستطيع تعويض حفيدي عن انشغالي عن والده بعملي.

أنهيت بعض شئوني سريعا بلندن، وتوجَّهت إلى القاهرة من جديد.

عودة إلى وطـن

هبطت الطائرة في مطار القاهرة.. لأدخل بالجواز المصري الذي ما زلت أصرُّ على تجديده، يستقبلني فريد الذي استأجر لي شقه فندقية بالزمالك لمدة شهر؛ حتى أتدبَّر أموري بهدوء، وأعيد اتزاني وجميع حساباتي. كنت قادمة إلى مصر مدفوعة بالظروف التي استجدت بوفاة ولدي، لم يكن عقلي هو المسيطر على تصرُّفاتي وقراراتي هذه الأيام، ولكني خضعت إلى جموح أفكاري نحو العودة إلى مصر من جديد. كلما جلست بمفردي كان شريط حياتي يمرّ أمامي، واكتشفت أن حياتي التي قضيتها من أجل ولدي حتى أُوفِّر له الحياة الكريمة التي نجحت في توفيرها له، لم أستمتع بأمومتي له بالقدر الكافي لانشغالي عنه بشئونه ومستقبله، وكأن عمري راح هدرا.

وكنت كثيرا ما أسأل نفسي: هل قرار هجرتي كان سليما؟ وهل انخراطي بهذه القوة في العمل والحياة على حساب قربي من ولدي كان صوابا؟ لم يكن هناك ما يعزيني عن ذلك بالقدر الكافي، وكنت على استعداد للبقاء في مصر لو وجدت في ذلك السلوى عما أصبحت أكابده من وحدة وحيرة وندم.

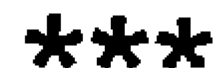
عاودت الاتصال بكل معارفي الذين كوَّنت علاقات معهم؛ سواء من خلال تواجدهم في لندن في فترات معيَّنة، أو كان لي أي طرف معرفة بهم في مصر

لأي سبب. رحت أُحاول على مدى أسبوعين كاملين أن أجد لنفسي مكانا أو موقعا لي في مصر، ولكن سرعان ما كان قراري بالعودة لعملي ووطني الذي اخترته بعد أن لفظني بلدي الذي وُلدت فيه.

صحبني فريد إلى المطار، وودَّعني قائلا لي:

- لا تغضبي؛ ففي عودتك إلى لندن واستكمال حياتك هناك إنما هي مِن قبيل طبيعة الأشياء.

ودَّعته، وشكرته، واتجهت إلى الطائرة المتجهة إلى بروكسل حتى أضع أذني على بطن مارلين لأستمع إلى نبض حفيدي مع أمل جديد في هذه الحياة...



بعد القراءة

أفيقوا أيُّها الناس قبل أن تصبحوا فتجدوا الرايات الحمراء قد زُرِعت فوق أسطح مساكنكم.

أفيقوا قبل أن ينفرط عقد مجتمع زاد فيه عدد السيدات المطلقات والأرامل ممن ليس لهن دخل ثابت أو إيراد معروف. وزاد عدد الأولاد الذين لا يتمتَّعون بآباء يغطّون مصروفاتهم الضرورية، واحتياجاتهم الإنسانية.

لا أدَّعي علما لحل لهذه المشكلة، ولكني أستصرخ المجتمع بكل طوائفه، أُنادي ضمائركم، أستجدي مشاعركم، أستثير كرامة مجتمعا بأثره، من أجل سيدة لا تجد قوتها بعد أن طلقها زوجها، من أجل طفل تجمَّدت مشاعر الأبوة عند رجل كره أمه لأي سبب.

أنا لا أعرف الحل، ولكني أسوق هذه القصة لسيدة مصرية رفضت أن تكون علاقتها بالحياة عبر رجل قد يكرهها فيتركها أو يرحل عنها بنهاية عمره.

لا بد من رعاية مجتمعية لهذه الفئة التي أصبحت ظاهرة لا يمكن السكوت عنها أو تجاهلها.

أُقدِّم هذه الصرخة من أجل مجتمع أفضل، بعد أن خرج الناس في هبة من أجل أن يُغيِّروا حُكَّامهم، فكما غيَّرنا حُكَّامنا يجب أن نحتوي أحشاءنا من هذه الطوائف التي توارت عنا، فصرنا لا نراها إلا إذا غصنا في أعماق المجتمع.

لقد خلق الله الرجل يعمل ويكسب لينفق على زوجة وأبناء، ولم يترك هذا الناموس هكذا عبثا بل زوَّدنا بالقلوب والضمائر، وأرسل رسله برسالات الواحدة تلو الأخرى.. حتى إن خاتم الرسل أوصى خيرا بالنساء في وصيته الأخيرة.

لم أكن من علماء الدين، ولا أدَّعي هذا، ولكني أؤكِّد أن وصية الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام لم تكن بالنساء اللاتي نحبّهن في بيوتنا، ونستمتع بهن في أسرَّتنا، ولكني أطمئن إلى اعتقادي أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يُوصينا بالأخريات، بمن خرجن من بيوت كن قد سكنَّها مع أزواج طلقوهن.. بمن لم يعد لهن لدى الأزواج حاجة لتقدّم سن، أو ترهل جسد، أو زهد مفاجئ لا يعلم سببه غير الله.

أيها الآباء علِّموا بناتكم، سلِّحوهن ضد غدر الزمان بعد أن يطلقها الزوج أو يرحل عنها، اطمئنوا إلى قدراتهن على كسب أقواتهن حتى لا تصبح أوَّل مهنة امتهنتها المرأة من نصيبهن.

إلى الجميع أوجِّه رسالتي من خلال هذه القصة لامرأة مصرية عرفت مشكلتها فحلتها بطريقتها. فكما يكتب المؤرِّخون تاريخ الحُكَّام؛ فيجب أيضا أن يجد الناس العاديون من يكتب عنهم ليكونوا جزءا من التاريخ الإنساني.

الكاتب

الفهـــــرس

صديقنا قارئ هذا الكتاب

قبل أن تغلق الكتاب دعنا نتفق على عدة أشياء، واثقون من أنها سترضيك.. دعنا نتفق على أن القراءة درّة أنعم الله بها علينا، ووهبنا إياها، تلك اللذة المميزة - والتي لم يمنحها للبعض- وهي لذة الاستمتاع بالقراءة.. نحن نقرأ ونتعلم، نقرأ ونُخَبَّر حكايات الآخرين، نقرأ ونختصر خبرات العالم في بضع صفحات،نقرأ ونتفق، نقرأ ونختلف، نقرأ ونقرأ ونقرأ... لكن الأكيد! أننا نقرأ ونستمتع ..

لذلك ،،،

لا تدع تلك اللذّة النادرة تقف عندك، لا تدع هذا الكتاب يتوقّف بين يديك - بعد الانتهاء منه - فهناك الكثيرون ممن لم يقرأوه، أو لا يمتلكون ثمنه، أو من لم يسمعوا عن هذا الكتاب.. خبّرهم عن تلك اللذة الشيقة، والمتعة النادرة التي لا يعلمونها.

مرِّر هذا الكتاب إلى أهل بيتك، صديقك، جارك، زميلك في العمل، أو حتى شخص ما في المواصلات العامة لم تره من قبل !!

كن سبيلا في إسعاد الآخرين بهذا الكتاب، ولا تتعجّب عندما تجد كتاباً لم تقرأه من قبل يأتيك من أحدهم وهو يخبرك بدوره عن متعة القراءة بعد ذلك بحين من الزمن.

دَارْ دَوِّنْ



همس لى فريد فى أذنى بلفظ الطلاق حتى يستكمل شكل وطبيعة الموضوع الذى حضر من أجل إتمامه , اهتززت من داخلى , و أومأت له برأسى مستسلمة لما قرره , فحضننى وكأنه أراد أن يزيد من قوتى ويأسى , كان حنانه فى هذا اليوم فياضا , وكأنه يودع هذه العلاقة الجميلة فى أحلى وأشيك وداعا عرفه المحبون .

مجدي بدير حجازي





تصميم الغلاف: إيمان صلاح